الأستاذ الدكتور
عباس عوض الله عباس

محاضرات في التفسير الموضوعي



محاضرات في التفسير الموضوعي/ عباس عوض الله عباس.- دمشق دار الفكر، ٢٠٠٧ .-٢٤٨ ص؛ ٢٥سم.
ISBN: 1-59239-592-9
١- ٢١٢,٣٥٦ ع ب أ م ٢- العنوان ٣- عباس
مكتبة الأسد

الأستاذ الدكتور
عباس عوض الله عباس

محاضرات في التفسير الموضوعي

دار الفكر
آفاق معرفة متجدّدة

الرقم الاصطلاحي: ١٩٧١,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-592-9
الرقم الموضوعي: ٢٢٠
الموضوع: القرآن وعلومه
العنوان: محاضرات في التفسير الموضوعي
التأليف: أ. د. عباس عوض الله عباس
التنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق
عدد الصفحات: ٢٤٨ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ – ٢٢١١١٦٦
Http://www.fikr.com
e-mail: info@fikr.com

الطبعة الأولى
المحرم ١٤٢٨هـ
كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٧م

المحتوى

مُقدِّمة

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، نحمده تعالى خلق الإنسان، علمه البيان، ونصلي ونسلم على معلم البشرية نبينا ورسولنا محمد بن عبد الله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما بعد

فقد جعل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم معجزة الرسول الكريم ﷺ العظمى، والحجة الدائمة على الخلق، والنور المبين للدعاة إلى يوم القيامة، يستمدون من نبعه أكثر الهداية، ويقتبسون من نوره مشاعل الهداية الدالة إلى أعظم حضارة عرفتها البشرية عبر تاريخها الطويل، والبراهينَ السواطعَ التي تبدد الشبهات، والإرشاداتِ اليقينيةَ التي تطفئ نار الوسواس في الصدور، ويجد كل متدبر لآيات الله في القرآن الكريم كمال الوفاء لحاجات البشر في مختلف العصور وبخاصة في الآيات التي تتحدث عن الكون والحياة والإنسان.

وإن الكلام عن إعجاز القرآن الكريم ونواحيه ليس بالأمر اليسير الهين الذي ينتهي في رسالة أو كتيب، لذا كان القرآن الكريم هو الكتاب الجامع لفروع الدين وأصوله نصاً أو استنباطاً، عقيدة وشريعة ونظام حياة، أودع

الله فيه من كنوز المعرفة وأصول العدل ومناهج الخير ما يُسعد الإنسانية، ويفتح أمامها آفاقاً رحبة في عمارة الكون، والتعارف والتعامل في ظل دستور قرآني خالد يرعى الحقوق، ويصون المواثيق والعهود، ويبشر الإنسانية المؤمنة بحسن مصيرها في الدار الآخرة، إذا هي آمنت بالله واهتدت بهداه.

وقد اهتم علماء المسلمين بتفسير كتاب الله، واستنباط أحكامه وهداياته، ففتح الله لهم من أسرار هذا الكتاب الكريم علوماً جمة وآفاقاً رحبة في جميع جوانب الكون ووجوه النشاط في الحياة؛ فهو كتاب علم وهداية، ومنهاج تربية وحضارة.

واهتدى علماء السلف من هذه الأمة في تفسير كتاب الله تعالى بهدي مدارس الصحابة، رضوان الله عليهم، التي عرفها تاريخ القرآن الكريم من خلال مدرسة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، في مكة، والتي تخرَّج فيها كل من أئمة التابعين في التفسير، سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس، وعطاء بن أبي رباح.

ومدرسة الصحابي الجليل أُبي بن كعب، رضي الله عنه، في المدينة المنورة، والتي تخرج فيها زيد بن أسلم، وأبو العالية الرياحي، ومجموعة أخرى منهم: محمد بن كعب القرظي.

ومدرسة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، في الكوفة والتي تخرَّج فيها: علقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، وعامر الشعبي، وعمرو بن شرحبيل، وأبو عبد الرحمن السلمي[١].

---

(١) انظر دراسات في علوم القرآن الكريم، للدكتور فهد الرومي، طباعة مكتبة التوبة، الرياض، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٣٩.

وزعماء هذه المدارس التفسيرية الكبرى هم الذين تخرَّجوا في مدرسة النبوة، فعبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، هو الذي دعا له النبي ﷺ بقوله: «اللهمَّ فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل»[١]. وأُبَيّ بن كعب، رضي الله عنه، يكفي أنه كان من كتاب الوحي الذين عهد إليهم الرسول الكريم بكتابة القرآن، ولم يكتمل نزول الوحي عليه من السماء، أما عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، فقد كان قارئ القرآن لرسول الله ﷺ والذي قال عنه: «من أحب أن يقرأ القرآن غضّاً كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد»[٢]. وعلى منهاج أئمة التفسير من الصحابة سار أئمة التفسير من التابعين فكانت أساليب التفسير المعروفة وهي:

١) التفسير التحليلي.

٢) والتفسير المقارن.

٣) والتفسير الجملي أو الإجمالي.

٤) والتفسير الموضوعي.

أما التفسير التحليلي فهو الذي يتتبع فيه المفسر الآيات حسب ترتيب المصحف، سواء تناول جملة من الآيات متتابعة أم سورة كاملة أو القرآن الكريم كله، ويبين ما يتعلق بكل آية من معاني ألفاظها ووجوه البلاغة فيها، وأسباب نزولها وأحكامها ومعناها ونحو ذلك، فهو أقدم أساليب التفسير فقد كان التفسير في نشأته الأولى يتناول الآيات المتتابعة ولا يتجاوزها المفسر إلى غيرها.

وهذا الأسلوب من التفسير هو الغالب على المؤلفات في التفسير، وأشهر

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ١/٢٦٦.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/٧.

التفاسير وأهمها قديماً وحديثاً، ومن ذلك تفسير جامع البيان للإمام الطبري، وفتح القدير للشوكاني، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير(١).

والتفسير المقارن هو الذي يعمد المفسر فيه إلى الآية أو الآيات فيجمع ما هو في موضوعها من نصوص، سواء كانت نصوصاً قرآنية أخرى أو نصوصاً نبوية أو أقوال الصحابة، رضي الله عنهم، أو أقوال التابعين والمفسرين أو الكتب السماوية الأخرى، ثم يقارن بين هذه النصوص ويوازن بين الآراء، ويستعرض الأدلة، ويبين الراجح منها(٢).

والتفسير الإجمالي أو الجملي، هو الأسلوب الذي يعمد فيه المفسر إلى الآيات القرآنية حسب ترتيب المصحف، فيبين معاني الجمل فيها متتبعاً ما ترمي إليه الجمل من أهداف، ويصوغ ذلك بعبارات من ألفاظه ليسهل فهمها، وتتضح مقاصدها للقارئ والمستمع، ومن أمثلة المؤلفات بهذا الأسلوب تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن سعدي(٣).

وأما التفسير الموضوعي، فهو أسلوب لا يفسر فيه صاحبه الآيات القرآنية حسب ترتيب المصحف، بل يجمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع فيفسرها، كتفسير القرآن بالقرآن أو تفسير آيات الأحكام، ومن أمثلته الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، والأشباه والنظائر للثعلبي، والدراسات التفسيرية كأمثال القرآن للماوردي(٤)، وهذا الأسلوب هو موضوع بحثنا، وهو ما سنتناوله إن شاء الله تعالى بشيء من التفصيل.

---

(١) راجع بحوث في أصول التفسير ومناهجها للدكتور فهد الرومي طباعة مكتبة الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ، ص٥٧ وما بعدها.

(٢) راجع المرجع السابق نفسه، ص ٥٧ وما بعدها.

(٣) راجع المرجع السابق نفسه، ص ٥٧ وما بعدها.

(٤) راجع المرجع السابق نفسه، ص ٥٧ وما بعدها.

والسبب الرئيسي الذي دفعني للكتابة عن التفسير الموضوعي هو أنه عندما طلب مني أن أقوم بتدريس مادة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم لطلاب كلية الدعوة والإعلام بجامعة أم درمان الإسلامية، ومن بعدُ طلاب الدراسات القرآنية بكلية المعلمين في بيشة، رأيت أن أعيش مع كتاب الله تعالى، وأن أقوم بقدر ما أستطيع من جهد بجمع المادة العلمية حسب المنهاج المقرر من التفسير الموضوعي.

ولعل الباحث والدارس لهذا الجانب من التفسير يجد عناءً شديداً لافتقار المكتبة الإسلامية لهذا اللون من التفسير، ومع أن تاريخ هذا العلم (التفسير الموضوعي) قديم فلا يوجد في الكتب القديمة كتاب أو مرجع يعول الإنسان عليه كثيراً، ومع ظهور هذا المصطلح حديثاً فإنك لا تجد إلا متفرقات هنا وهناك، لأن المفسرين للقرآن الكريم غلب على تفسيرهم جمع آيات القرآن الكريم وسوره حسب ترتيب المصحف، وقاموا بتفسيره، كما أن الذي كتبه العلماء القدماء والمحدثون من موضوعات مثل: الإعجاز، والأشباه والنظائر، والناسخ والمنسوخ، والجدل، والأمثال، وأسباب النزول ما هي إلا مباحث من علوم القرآن الكريم، وليست تفسيراً موضوعياً مع وجود صلة بين تلك الموضوعات والتفسير الموضوعي بوجه من الوجوه.

ومن هذا المنطلق رأيت أن أقوم بدراسة متواضعة لهذا اللون من التفسير محاولاً تغطية بعض الجوانب الهامة فيه خدمة لكتاب الله سبحانه وتعالى في المقام الأول، ثم لإفادة طلاب العلم منه مما جعلني أسميه (محاضرات في التفسير الموضوعي) فقد كانت المحاضرة الأولى بعنوان: مدخل إلى التفسير الموضوعي، فشملت تعريفه ونشأته وتطوره وأنواعه وأهميته.

والمحاضرة الثانية جعلتها في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم تعريفها، ومعناها، وأمثلة لها، ومن ذلك الوحدة الموضوعية لبعض سور القرآن الكريم.

وكانت المحاضرة الثالثة في الولاء والبراء في القرآن الكريم، وشمل ذلك عدة مباحث: المبحث الأول: الولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها، والمبحث الثاني: وجوب موالاة المؤمنين، والمبحث الثالث: وجوب البراء من جميع أعداء الله وإظهار عداوتهم، كالكفار والمشركين وأهل الكتاب من يهود ونصارى والمنافقين والمحادين لله ورسوله، ولو كانوا ذوي قربى، والمبحث الرابع: تحدثت فيه عن صور من التولي المنهي عنه في القرآن الكريم، كالمحبة والموادة واتخاذهم أنصاراً وأعواناً، والإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر أو التحاكم إليهم أو الركون إليهم أو اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، أو طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون والتشبه بهم، أما المبحث الخامس: فقد تناولت فيه الفرق بين الموالاة والمعاملة بالحسنى وشيئاً من صور المعاملة الجائزة.

أما المحاضرة الرابعة فقد جاءت عن منهج إبراهيم، عليه السلام، في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم، وشمل ذلك الحديث عن بعض صفات إبراهيم، عليه السلام، من أنه كان أمةً قانتاً لله حنيفاً، شاكراً لنعم ربه، أواهاً حليماً، خليلاً، سخياً وكريماً وبرّاً بأبيه، وصبره وتحمله وتوكله وشجاعته، وأثر ذلك في دعوته إلى الله تعالى، كما تناولت أساليب إبراهيم النظرية في الدعوة إلى الله، كالمناظرة والمحاجاة والمعاريض والاستعطاف واستعارة الخصم، والأساليب العملية كالقدوة والبداءة بالأهم، والبداءة بالأقربين، واللين أولاً ثم الشدة والتحدي والمفاصلة والدعاء والتضرع إلى الله وتحطيم الأصنام والهجرة وبناء البيت والمبادرة بامتثال أمر الله بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

أما المحاضرة الخامسة فكان عنوانها منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت، ولقد سلك القرآن في ذلك مسالك تجمع بين الجوانب الفطرية والعقلية والحسية، كالاستدلال على البعث بالنشأة الأولى، والاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيهما، والاستدلال بخروج النبات من الأرض، والاستدلال بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت في الحياة الدنيا، كصاحب القرية، وإحياء الطيور لإبراهيم، عليه السلام، والملأ من بني إسرائيل، وقوم موسى السبعين، والقتيل الذي ضرب بعضو من أعضاء البقرة، وكذلك الاستدلال بإخراج النار من الشجر الأخضر، والاستدلال بحصول اليقظة بعد النوم، والاستدلال بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء.

وجاءت المحاضرة السادسة في الحديث عن مكائد الشيطان للإنسان، وطرق الحيطة والحذر كما عرضها القرآن الكريم، وذلك من تزيينه الباطل، وتسميته الأمور بغير اسمها، والوعد والتمني، وإظهار النصح للإنسان، والعمل على إنساء الإنسان ما فيه الخير والصلاح، وتخويف المؤمنين من أوليائه، وإلقاء الشبهات، والخمر والميسر والسحر، ومن طرق الحيطة والحذر: الالتزام بالكتاب والسنة والالتجاء إلى الله والاحتماء والاستعاذة من الشيطان بكثرة الذكر حتى يخنس الشيطان ويختفي من قلب المؤمن.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جعلناه عنواناً للمحاضرة السابعة، فبيّنا أولاً مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم كما وقفنا على حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعواقب إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصفات التي ينبغي أن يتصف بها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، ومن تلك الصفات العلم والعمل بما يقول والصبر والرفق واللين والتيسير، والتبشير.

أما المحاضرة الثامنة فتحدثت عن الجهاد في الإسلام من خلال سور القرآن الكريم، وشمل ذلك الحديث عن فضل الجهاد والمجاهدين وأهداف القتال في القرآن الكريم وفضل الشهداء.

أما الصلاة في سور القرآن الكريم فقد كانت موضوع محاضرتنا التاسعة، فتناولنا أدلة فرضيتها في القرآن الكريم، ومنزلتها فيه، والخشوع فيها والمحافظة عليها والمداومة فيها، وأثر الصلاة في حياة الفرد والمجتمع، وما أعده الله من الثواب للمقيمين للصلاة في القرآن الكريم.

وجعلنا برّ الوالدين محاضرتنا العاشرة، فبينّا عناية القرآن الكريم بالوالدين وبيان حقوقهما بالإحسان إليهما، وبالكلمة الطيبة، وحسن المعاملة، وبالتواضع ولين الجانب، والدعاء لهما، وبطاعتهما في غير معصية الله.

أما المحاضرة الحادية عشرة فقد تحدثنا فيها عن الصبر في القرآن الكريم متناولين مجالات الصبر من قيام بالواجبات الدينية ومخالطة الناس والجهاد في سبيل الله والدراسة والبحث العلمي، كل تلك الجوانب تحتاج إلى صبر جميل، وبينّا فضل الصبر وثوابه، وروائع أمثلة الصبر على البلاء، وأخذنا نموذجين على ذلك من القرآن الكريم هما نبي الله إبراهيم ونبي الله أيوب عليهما وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم إمام الصابرين والمجاهدين.

أما أثر المعاصي على الأمم فجعلناه موضوع محاضرتنا الثانية عشرة في محاضراتنا في التفسير الموضوعي، فتناولنا هذا الموضوع الهام من خلال تحذير آيات القرآن الكريم من المعاصي، وتعرضنا لآثار المعاصي في القرآن الكريم من زوال النعمة، ومحو البركة من الأرض، وزوال الأمن والعقوبة والهلاك أعاذنا الله منها.

وجاءت المحاضرة الثالثة عشرة والأخيرة في التطبيق العملي للوحدة الموضوعية في سور من القرآن، وشمل ذلك الحديث عن الوحدة الموضوعية في سورة النور.

وبعد: فعلى الرغم من تلك المحاضرات التي ألقيتها على طلابي عدة سنوات إلا أنني أقول: إنها لم تحصر كل ما تعلق بآيات التفسير الموضوعي في القرآن الكريم، لأن البحث في موضوعات آيات القرآن وسوره مرتبطة بعجائب القرآن ومعجزاته، فهذا مداد الله الذي لا تنفد كلماته، إلا أننا قمنا بتفسير الآيات التي جمعناها في وحدة موضوعية معينة تفسيراً يفهم منه المراد بتلك الوحدة المجموعة من الآيات، كما قمنا بدراسة كل موضوع على أنه وحدة متكاملة، واصطحبنا الاستدلال بالسنة ما أمكننا ذلك.

والله أسأل أن يغفر لنا الخطأ والزلل في سِفْرنا هذا، وأن يثبتنا على الصواب الذي وفقنا إليه خدمة لكتابه العزيز هذا والله أعلا وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الراجي لعفو ربه أ. د/ عباس عوض الله عباس

بيشة: كلية المعلمين في العام الدراسي ١٤٢١/ ١٤٢٢هـ

المحاضرة الأولى
مدخل إلى التفسير الموضوعي

المبحث الأول
تعريف التفسير الموضوعي

إن كلمة التفسير الموضوعي تتألف من جزأين ركِّبا تركيباً وصفياً، فلا بد من تعريف كل جزء من هذين الجزأين.

فالتفسير لغة: من الفَسْر وهو الكشف والبيان وإظهار المعنى المعقول والتفسير مبالغة من الفَسْر[1]، ويقال أيضاً: أسفر الصبح إذا بان ووضح.

والتفسير في اصطلاح الشرع هو عبارة عن الكشف عن معاني آيات القرآن الكريم والغوص في أعماقها للوصول إلى مراد الله تعالى منها بقدر طاقة البشر[2].

أو هو علم يكشف به عن معاني آيات القرآن وبيان مراد الله تعالى منها حسب الطاقة البشرية[3].

---

(١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص ٥٧١.

(٢) دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. زاهر عواض الألمعي، ص ٧.

(٣) المدخل إلى التفسير الموضوعي، د. عبد الستار سعيد، ص ٢٣، ٣٠.

وكلمة موضوعي في اللغة: الموضوع لغة من الوضع، وهو جعل الشيء في مكان ما، سواء كان ذلك بمعنى الحط والخفض أم بمعنى الإبقاء والتثبيت في المكان، يقال ناقة واضعة: إن رعت الحمض حول الماء ولم تبرح، وقيل: وضعت تضع وضيعة فهي واضعة، وكذلك موضوعة، يتعدى ولا يتعدى، وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي، لأن المفسر يرتبط بمعنى معين لا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي التزم به[١].

وفي الاصطلاح قضية أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة أو السلوك الاجتماعي أو مظاهر الكون تعرضت لها آيات القرآن الكريم.

أما تعريف المصطلح (التفسير الموضوعي) بعد أن أضيفت كلمة تفسير إلى موضوعي صارت علماً على هذا الفن بعد أن ركبت معها وصارت كلمة واحدة، فالتفسير الموضوعي عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد مشتركة في الهدف وترتيبها على حسب النزول كلما أمكن ذلك، ثم تناولها بالشرح والتفصيل وبيان حكمة الشارع في شرعه وقوانينه مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم والكشف عما يمكن أن يكون قد أثير حوله من شبه الضالين والملحدين من أعداء الدين[٢].

أو هو بعبارة موجزة، التفسير الموضوعي هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال آيات أو سورة أو أكثر[٣].

ولعل هذا التعريف المختصر هو الأرجح لخلوه من التكرار والشرح والتوضيح كما في التعريف الأول.

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفى مسلم، ص ١٥.

(٢) انظر التفسير الموضوعي، د. محمد القاسم، ص ٧، ٨.

(٣) انظر المدخل إلى التفسير الموضوعي، د. عبد الستار سعيد، ص ٢٠.

ويرى بعض العلماء أن التفسير الموضوعي يطلق ويراد به أمران بينهما ارتباط من بعض الوجوه.

الأول: جمع الأشباه والنظائر في القرآن الكريم حسب مادة الكلمة اللغوية، ثم ترتيبها ترتيباً معجمياً، ككتاب (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للفقيه الدامغاني) وكتاب (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم لمقاتل بن سليمان البلخي).

الثاني: ذكر الموضوع ثم جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن مما له علاقة به، سواء اشتركت معه في اللفظ أو المعنى أم ارتبطت بالموضوع ارتباطاً قوياً ولو من بعض الوجوه، وذلك مثل (موضوع المرأة في القرآن الكريم) فتجمع الآيات التي تحدثت عن المرأة في الزواج والطلاق والحضانة والميراث والعلاقة الزوجية وغير ذلك مما يتعلق بشؤون المرأة كما تناولته الآيات القرآنية[١].

وهناك موضوعات كثيرة في القرآن الكريم لا حصر لها كما أشرت إلى ذلك في مقدمة الكتاب، ومن كل ما تقدم من حديث فإنه يمكن أن نعرف التفسير الموضوعي بقولنا: هو جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية.

المبحث الثاني

نشأة التفسير الموضوعي وتطوره

يرى البعض أن التفسير الموضوعي كان متناولاً منذ عهد الرسول الكريم ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، وإن لم يُعرف بهذا الاسم أو المصطلح[٢]. (التفسير الموضوعي).

---

(١) بتصرف من دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور الألمعي، ص ٨ وما بعدها.

(٢) انظر أصول التفسير ومناهجه للدكتور فهد الرومي، ص ٦٣.

إلا أن البعض يرى أن هذا العلم لم يعرف إلا في القرن الرابع عشر الهجري، عندما قررت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر، إلا أن لَبِنات هذا اللون من التفسير وعناصره الأولى كانت موجودة منذ عصر التنزيل في حياة رسول الله ﷺ[(١)].

ومما يدل على ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٢] شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليست الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: (﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٣] إنما هو الشرك»[(٢)].

وروى البخاري أن رسول الله ﷺ فسّر مفاتح الغيب في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٩] فقال: الغيب خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤][(٣)].

ومن هذا القبيل ما كان يلجأ إليه الصحابة، رضوان الله عليهم، من الجمع بين الآيات القرآنية التي يظن بها بعضهم التعارض، كما روى البخاري قال: وقال المنهال عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس، رضي الله عنهما: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠١] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٢٧] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾

---

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم، ص ١٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير ٦/ ٢٠ وصحيح مسلم كتاب الإيمان ١/ ٨٠.

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير ٥/ ١٩٣.

[النساء: ٤/ ٤٢] ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٣] فقد كتموا في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٢٧] إلى قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٣٠] فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٤١/ ٩] إلى قوله تعالى: ﴿طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ٤١/ ١١] فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى ﴿دَحَىٰهَآ﴾[1].

وقد وضع العلماء بعد ذلك قاعدة في أصول التفسير بضرورة العودة إلى القرآن الكريم نفسه لمعرفة تفسر آية ما، فما أُجمِل في مكان فُصِّل في مكان آخر، وما أطلق في سورة مقيد في سورة أخرى، يقول ابن تيمية رحمه الله: «... إن أصح الطرق في ذلك - أي في تفسير القرآن - أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختُصر في مكان فقد بسط في موضع آخر»[2].

والمثال على ذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [النحل: ١٦/ ١١٨] فقد أفادت الآية الكريمة أن ما حرم على اليهود قد سبق أن قصه على نبيه مفصلاً في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٦].

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير ٦/ ٣٦.

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، تحقيق عدنان زرزور، ص ٩٣.

والمثال الثاني ما يتعلق بالمحرمات من بهيمة الأنعام، فقد جاءت مجملة في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ١]، وقد جاء التفصيل على ما حرم من بهيمة الأنعام على هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٥].

وقد جمع الفقهاء هذه الآيات ذات الصلة بموضوع واحد في كتبهم الفقهية، فجمعوا ما يتعلق بالوضوء والتيمم تحت كتاب الطهارة، واستنبطوا منها الأحكام الخاصة بها، كما جمعوا من الآيات ما ورد في الصلاة في كتاب الصلاة، وما يتعلق بآيات الصدقات والمصارف والزكاة وأنواع المال التي تخرج منها الصدقة تحت كتاب الزكاة، فيعد كل ذلك لوناً من ألوان التفسير الموضوعي في مراحله الأولى[1].

كما اتجهت الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم اتجاهاً لغوياً بتتبع الألفاظ القرآنية ومحاولة معرفة مدلولاتها المختلفة ككتاب الأشباه والنظائر في القرآن الكريم لمقاتل بن سليمان البلخي، كما ألَّف الإمام علي بن المديني شيخ الإمام البخاري، والمتوفَّى سنة ٢٣٤هـ في أسباب النزول، وأبو بكر الجصاص المتوفَّى سنة ٣٧٠هـ كتابه أحكام القرآن، وأمثال القرآن الكريم للماوردي المتوفَّى سنة ٤٥٠هـ، وأقسام القرآن لابن القيم المتوفَّى سنة ٧٥١هـ، وهذه الكتب كلها جانب في التفسير الموضوعي في ألوان مختلفة[2].

واستمر الأمر كذلك إلى عصرنا الحاضر حيث توجهت أنظار الباحثين إلى هدايات القرآن الكريم في الاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية والعلوم

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم، ص ١٩.

(٢) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم، ص ٢٠.

الكونية والطبيعية، فنجد مؤلفات مثل الإنسان في القرآن، والأخلاق في القرآن، والصبر في القرآن، واليهود في القرآن، والرحمة في القرآن، وكتاب المستشرق الفرنسي جول لابوم (تفصيل آيات القرآن الكريم) ومن خلال تصفحك لأبواب هذا الكتاب وفروعه المختلفة كالتاريخ والشريعة والتجارة والعلوم والفنون، فهو بهذا يعد لَمَّ شتات موضوع من الموضوعات القرآنية[1].

وإذا تتبعنا التفاسير نجد في بعضها الاتجاه إلى التفسير الموضوعي ولو من بعض الوجوه، كتفسير ابن كثير رحمه الله فنجده يجمع كثيراً من الآيات التي ضرب فيها المثل كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢/٢٦] فيقول: «فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت»[2]، فهذه الأمثال كلها تكلمت على موضوع واحد هو قدرة الله تعالى.

ومن تلك النماذج القديمة للتفسير الموضوعي كتاب التبيان في أقسام القرآن، والناسخ والمنسوخ، في موضوعات متعددة من القرآن، كما ظهرت بجوار التفاسير الكاملة للقرآن أنواع أخرى من المؤلفات في موضوعات القرآن الكريم، كالمجاز في القرآن، ومجاز القرآن، والقراءات وما يتعلق بها، واستمرت هذه الدراسات لتصب في لون جديد من ألوان التفسير في عصرنا الحاضر، وهو ما عرف بالتفسير الموضوعي ككتاب الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا، ودستور الأخلاق للدكتور محمد عبد الله دراز، وأثر التربية في

---

(١) انظر دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر الألمعي، ص ١٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٦٤ - ٦٥.

القرآن لمحمد الشرقاوي، والتفسير الموضوعي لبعض سور القرآن للدكتور محمد البهي.

وتطور التفسير الموضوعي حتى أصبح علماً يقصده الباحثون متناولين فيه كل ما يتعلق بموضوعات القرآن الكريم.

ولقد اهتم بالتأليف في موضوعات القرآن الكريم عدد من العلماء على اختلاف عصورهم ومذاهبهم واهتمامهم كما سنرى:

أولاً: فقد ألف في موضوع الناسخ والمنسوخ كل من:

١) قتادة بن دعامة السدوسي المتوفَّى سنة ١١٨ هـ.

٢) أبو عبيد القاسم المتوفَّى سنة ٢٢٤ هـ.

٣) أبو جعفر النحاس المتوفَّى سنة ٣٣٨ هـ.

ثانياً: وألف في معاني القرآن الكريم:

أبو زكريا الفراء المتوفَّى سنة ٢٠٧ هـ.

ثالثاً: وألف في غريب القرآن الكريم:

١) أبو بكر السجستاني المتوفَّى سنة ٣٣٠ هـ.

٢) الراغب الأصفهاني المتوفَّى سنة ٥٠٣ هـ.

رابعاً: وألف في مشكل القرآن:

ابن قتيبة المتوفَّى سنة ٢٧٦ هـ.

خامساً: وألف في مجاز القرآن الكريم:

١) أبو عبيدة المتوفَّى سنة ٢٠٦ هـ.

٢) الشريف الرضي المتوفَّى سنة ٤٠٦ هـ.

سادساً: وألف في إعجاز القرآن الكريم:

١) الجاحظ المتوفَّى سنة ٢٥٥ هـ.

٢) الرماني المتوفَّى سنة ٣٨٦ هـ.

٣) الخطابي المتوفَّى سنة ٣٨٨ هـ.

٤) الباقلاني المتوفَّى سنة ٤٠٣ هـ.

٥) الجرجاني المتوفَّى سنة ٤٧١ هـ وغيرهم كثير.

سابعاً: وألف في أقسام القرآن:

ابن قيم الجوزية المتوفَّى سنة ٧٢١ هـ.

ثامناً: وألف في أسباب النزول:

١) علي بن المديني المتوفَّى سنة ٢٣٤ هـ.

٢) أبو الحسن الواحدي المتوفَّى سنة ٤٦٨ هـ.

٣) الإمام السيوطي بالإضافة لكتابه القيم الإتقان في علوم القرآن.

تاسعاً: وألف في تناسب الآيات والسور البقاعي المتوفَّى سنة ٨٨٥ هـ.

إن كل تلك المؤلفات أسهمت بشكل فاعل في نشأة التفسير الموضوعي بمفهومه الشامل[١].

---

(١) راجع دراسات في التفسير الموضوعي لقصص القرآن للدكتور أحمد جمال العمري، ص ٥٠ وما بعدها.

المبحث الثالث

أنواع التفسير الموضوعي

ينقسم التفسير الموضوعي إلى ثلاثة أنواع رئيسة[(١)]:

الأول: أن يتتبع الباحث كلمة من كلمات القرآن الكريم، ويجمع الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، ثم يقوم بتفسيرها واستنباط دلالاتها واستعمالات القرآن الكريم لها.

وقد اهتمت بهذا النوع من التفسير كتب الأشباه والنظائر مع وقوفها عند دلالة الكلمة من غير ربط بين مواضع ورودها واستعمالاتها في كل موضع، فلم يتعد ذلك كله الدلالة اللفظية.

ثم اتسع هذا اللون من التفسير، فتتبع المفسرون الكلمة، وحاولوا الربط بين دلالتها في مختلف المواضع، وأظهروا بهذه الطريقة معاني جديدة، وألواناً من البلاغة، ووجوهاً من الإعجاز القرآني، واستنبطوا دلالات قرآنية دقيقة لا تظهر بغير هذا المسلك. ومن أمثلة المؤلفات على هذا النوع: كلمة الحق في القرآن الكريم للشيخ محمد عبد الرحمن الراوي، والمصطلحات الأربعة في القرآن الكريم «دلالة الإله -الرب - العبادة - الدين» للشيخ أبي الأعلى المودودي، والحمد في القرآن الكريم للدكتور محمد محمد خليفة، ومن مفردات القرآن «المنافقون» للدكتور محمد جميل غازي، وتأملات حول وسائل الإدراك في القرآن الكريم (الحواس - القلب - الفؤاد) للدكتور محمد الشرقاوي، وكتاب الأمة في الدلالة العربية والقرآنية للدكتور أحمد فرحات.

---

(١) بحوث في أصول التفسير ومناهجه للدكتور فهد الرومي، ص ٦٦ وما بعدها.

الثاني: جمع الآيات القرآنية التي تتناول قضية واحدة بأساليب مختلفة عرضاً وتحليلاً ومناقشة وتعليقاً وبيان حكم القرآن فيها.

والمفسر يجعل الموضوع ذاته همه الأول فلا يشتغل بذكر القراءات، ووجوه الإعراب، وصور البلاغة إلا بمقدار صلتها بما تخدم الموضوع الذي اختاره، وهذا النوع هو أشهر أنواع التفسير الموضوعي وأكثرها تأليفاً ودراسة، والمؤلفات في هذا النوع كثيرة قديماً وحديثاً، مثل إعجاز القرآن، والناسخ والمنسوخ، وأحكام القرآن، وأمثال القرآن، وجدل القرآن، وبلاغة القرآن، وفي العصر الحديث أضيفت إلى هذه العلوم موضوعات اجتماعية واقتصادية وسياسية وغير ذلك، كآيات الجهاد في القرآن الكريم لكامل سلامة، والمال في القرآن لمحمود غريب، والقرآن والطب لمحمد وصفي، ودستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز وموضوعات أخرى كثيرة.

النوع الثالث: هو تحديد الموضوع الذي تتناوله سورة قرآنية واحدة ثم دراسة هذا الموضوع من خلال تلك السورة وحدها، فدائرة هذا النوع أضيق من النوع الثاني، ومن المعلوم أن لكل سورة من السور القرآنية شخصيتها المستقلة، وأن لها هدفاً واضحاً ترمي إلى إيضاحه وبيانه، وإدراك هدف السورة يكشف للباحث معاني دقيقة ومناسبات لطيفة وصوراً بليغة.

وممن تميز تفسيره بالعناية ببيان مقاصد السور وأهدافها الأستاذ سيد قطب - تقبله الله ورحمه - حيث التزم أن يقدم لكل سورة مقدمة يبين أهدافها، وينطلق في تفسيرها على هذا المحور، مما أعطى تفسيره الظلال صبغة فريدة.

ومن المؤلفات في هذا النوع من التفسير: تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام للدكتور إبراهيم كيلاني، ونماذج من الحضارة القرآنية في سورة

الروم لعبد المنعم الشفيع، وقضايا العقيدة في ضوء دراسة سورة ق للأستاذ كمال محمد عيسى، وقضايا المرأة في سورة النساء للدكتور محمد يوسف، وسورة الواقعة ومنهجها في العقائد للدكتور محمد غريب، والوحدة الموضوعية في سورة يوسف للدكتور حسن محمد باجودة، والوحدة الموضوعية في سورة الأنعام للدكتور عباس عوض الله.

ومن هنا يتضح لنا أن التفسير الموضوعي من أهم أساليب التفسير، وله مزايا عديدة وكثيرة.

ومما تقدم ذكره يتضح لنا أن أنواع التفسير تنحصر في ألوان ثلاثة. فاللون الأول: هو الذي يتتبع فيه الباحث لفظة من كلمات القرآن الكريم ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية ومن تفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها، وذلك كمعنى كلمة (الخير) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٢] يعني من مال، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٣] يعني لو علم الله فيهم إيماناً، والخير بمعنى الإسلام في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٥] والخير بمعنى العافية في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٧] والخير بمعنى الأجر في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٦] والخير بمعنى الطعام: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٤] يعني الطعام، والخير بمعنى الظفر والغنيمة كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٥] يعني ظفراً وغنيمة، فبقيت الكلمة في دلالة اللفظ المفرد دون استنباط الدلالات التوجيهية القرآنية.

أما اللون الثاني: والذي يتعلق بتحديد الموضوع بما عرضه القرآن الكريم له بأساليب متنوعة في العرض والتحليل والمناقشة والتعليق، وذلك بتتبع الموضوع من خلال سور القرآن الكريم، ويستخرج الآيات التي تناولت الموضوع، ثم يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع، وينسق عناصر الآيات، ثم يقسم الموضوع إلى أبواب وفصول ومباحث، متجنباً التعرض للأمور الجزئية في تفسير الآيات من القراءات والإعراب إلا بمقدار ما يحتاج إليه ويهتم ببيان مقاصد الآيات والحكمة الإلهية في عرض الموضوع بأساليب معينة وألفاظ محددة.

وهذا اللون هو أقرب الألوان لما تحتويه كلمة «تفسير موضوعي» من معنى.

أما اللون الثالث: فهو الهدف الأساسي في السورة الواحدة، ويكون هذا الهدف هو محور التفسير الموضوعي في السورة، وطريقة البحث في هذا اللون هو أن يستوعب الباحث هدف السورة، ثم يبحث عن مميزات السورة وفضلها وأسباب نزولها، ويضيف إليها الأساليب القرآنية في عرض الموضوع والمناسبات بين مقاطع الآيات في السورة، مما يجعل لكل سورة شخصيتها المستقلة، فالسورة المكية تعرض أسس العقيدة، والمدنية تبرز أصول الأحكام الشرعية، ولم يظفر هذا اللون من التفسير الموضوعي عند قدماء المفسرين، بل جاء في أثناء تفاسيرهم، ولكنه برز بصورة واضحة عند المحدثين وخاصة في عصرنا الحاضر[١].

والحديث عن أنواع التفسير الموضوعي يقودنا للتحدث عن صلة التفسير الموضوعي بالأنواع الأخرى من التفسير (تحليلي - جملي - مقارن) لأن مجال البحث واحد هو كتاب الله سبحانه وتعالى، فالتفسير التحليلي لا يستغني

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم، ص ٢٥ وما بعدها.

عنه الباحث في التفسير الإجمالي أو الموضوعي أو المقارن، لأن التفسير التحليلي ينصب في معرفة دلالة الكلمة اللغوية والشرعية والربط بين الكلمات في الجملة وبين الجمل، وكذلك لمن أراد تناول الآيات وتفسيرها بالأسلوب المقارن بين المفسرين ليحكم على صواب منهج المفسر، فلا غنى للباحث في التفسير الموضوعي عن الأنواع المتقدمة من التفسير، لأن التفسير الموضوعي هو ثمرة أساليب التفسير مجتمعة، إذ لا بد من الإحاطة بأنواع التفسير لمن أراد أن يقيم بنيانه على التفسير الموضوعي للقرآن الكريم(١).

المبحث الرابع

أهمية التفسير الموضوعي

تكمن أهمية الحاجة إلى التفسير الموضوعي في مجتمعاتنا المعاصرة أكثر من أي وقت مضى، وذلك لبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية، وانفتاح ميادين للنظريات العلمية الحديثة، حيث لا يمكن تغطيتها وإيجاد الحلول الصحيحة لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

وذلك من خلال معرفة الهدايات القرآنية وإرشادات السنة النبوية بحيث تكون للمفسر ملكة لإدراك مقاصد القرآن الكريم في هذا الصدد، وبمنظار القرآن الكريم ينظر إلى حل المشكلات المستجدة، فيصل الباحث في التفسير الموضوعي من خلال تلك الهدايات إلى أنوار كاشفة ترسم لنا طريق المعرفة، وتحدد لنا معالم تقويم كل ما استحدث من جديد، لذا فإنه لا يمكن أن نجابه مشاكل العصر ومعطيات الحضارة إلا بأسلوب الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم الذي هو أسلوب التفسير الموضوعي.

إن تخصيص موضوع معين من خلال النصوص القرآنية ودراسته من جميع

---

(١) راجع المرجع السابق، ص ٥٢ وما بعدها.

أطرافه من أسباب نزول وتحديد المرحلة التي نزلت فيها الآيات من معالجة القضايا، هيأ للموضوع مناخاً علمياً لدراسة الموضوع بعمق وشمولية تثري المعلومات، وتبلور القضايا، وتبرز المعالم.

ومثل هذا العمق والتوسع لإبراز معالم الموضوع لا يتيسر للباحث في أي نوع من أنواع التفسير التحليلي أو الإجمالي أو المقارن، بل نجد أن التفسير الموضوعي هو الأسلوب الأمثل في بحث مثل هذه الأمور[(١)].

ومن أهمية التفسير الموضوعي أن الباحث فيه يستطيع أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه، ويجد أهل الاختصاص في كل فن أن المعجزة الخالدة الباقية تقيم الحجة على الأجيال، وأن في القرآن كفاية عن كل شيء ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٥٠-٥١].

وتكمن أهمية التفسير الموضوعي في تأهيل الدراسات القرآنية، وتصحيح مسارها، فقد نالت بعض العلوم القرآنية حظاً وافراً من جهود العلماء وصنفت فيها عشرات المصنفات مثل العلوم المتعلقة بالجوانب اللغوية، والدراسات الفقهية لآيات الأحكام، لكن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم برز إلى الساحة الإنسانية حديثاً فهو يحتاج إلى الضبط بقواعد العلم المستمدة من هداية القرآن الكريم للبعد عن الإفراط فيه بمعاملة الآيات القرآنية معاملة العلوم التجريبية من علوم الفلك والطبيعة والإنسان.

والتفسير الموضوعي يعطي مداً جديداً لانتشار تعاليم هدي القرآن كما أنه يفسح المجال للدارسين في شتى التخصصات ليحاول كل واحدٍ منهم فهم تخصصه من خلال الهدي القرآني بصورة أعمق وأدق، فرجل الفقه يعنى

---

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم، ص ٣١.

بآيات التشريع والأحكام والحدود، ورجل الاقتصاد يعنى بآيات المال والإنتاج والتوزيع والإنفاق، ورجل الفلك أو الفيزياء يهتم بالآيات الكونية، ورجل التربية يعتمد على آيات التوجيه والإرشاد والقصص، وهكذا يعنى كل متخصص بموضوع تخصصه ومجال اهتمامه، ويركز عليه ويجد فيه بكل ما أوتي من علم وفق قواعد التفسير المعتبرة، كما أن تتابع هذا اللون من التفسير أو الدراسة كفيل بأن يبين للناس لوناً جديداً من الإعجاز، يتمثل في معنى القرآن لسعة القرآن وما احتوته الموضوعات القيمة والمختلفة، مما يجعل للتفسير الموضوعي أهمية قصوى في عصرنا الحاضر(١).

إن التفسير الموضوعي منهج يغطي كل تلك المجالات المختلفة، ويؤصل للعلوم، ويضع الأسس والضوابط لها، فيمكن لمن تناول التفسير الموضوعي أن يستشف من النصوص القرآنية هدايات القرآن في كافة المجالات المختلفة، وليست هنالك من وسيلة للوصول إلى تلك الأهداف إلا من خلال وضع نماذج لهذه العلوم، وبيان ضوابطها من خلال التعامل مع الآيات الكريمة وفق منهج التفسير الموضوعي الذي يجعل السورة القرآنية وحدة متكاملة، هدفها واحد وإن تعددت الموضوعات، فهي تدور حول الغرض الأساسي، وأن تجمع الآيات ذات الهدف المشترك، وترتب على حسب النزول، وتتناول بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط مع الإحاطة بكل جوانب الموضوع، كما ورد في القرآن الكريم بقصد الوصول إلى الغاية من البحث القرآني، وإفادة المجتمع الإسلامي منه، ليخرج الموضوع في صورة متكاملة تامة، ويكون هدف الباحث في ذلك إبراز محاسن القرآن الكريم(٢).

من كل ذلك يتبين لنا أهمية التفسير الموضوعي في تفسير القرآن الكريم.

---

(١) بتصرف من دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر الألمعي، ص ٢١.

(٢) انظر التفسير الموضوعي للدكتور محمد القاسم، ص ١٢ - ١٩.

المحاضرة الثانية

الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم

المبحث الأول

تعريفها ومعناها

الوحدة في اللغة: الوحدة الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثم يطلق على كل موجود.. فالواحد لفظ مشترك يطلق على ستة أوجه، ما كان واحداً في الجنس مثل: الإنسان والفرس، أو النوع مثل: محمد وعلي، أو ما كان واحداً بالاتصال في الشخص أو الصفة، أو ما كان واحداً لعدم النظير مثل الشمس، أو ما كان واحداً لعدم التجزئة فيه مثل الذرة، أو ما كان واحداً في مبدأ العدد مثل واحد، أو في مبدأ الخط كالنقطة، والوحدة في الكل عارضة[1].

أما الوحدة فقد فسرت في المعاجم بالانفراد، وتستعمل الآن في معنى الاتحاد أو صيرورة الاثنين فما فوقهما واحداً فيقال: وحدة الدولتين، ووحدة قوانين التجارة، والوحدة كون الشيء بحيث لا ينقسم، وتطلق ويراد بها عدم التجزئة والانقسام[2].

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، ضبط محمد خليل، طباعة دار المعرفة، بيروت، ص ٤٣٥.

(٢) من مقال للشيخ محمد النجار في مجلة الأزهر، عدد رمضان سنة ١٣٧٧هـ.

حينما درس النقاد المسرحية والقصة وهما من الفنون الأدبية المستحدثة في اللغة العربية، تبين لهم أن الوحدة الموضوعية من أهم الشروط التي يجب توافرها في العمل الأدبي، ونحن حينما نتكلم على الوحدة الموضوعية في سورة معينة، فإننا لا نريد أبداً أن نقارن بين القرآن من جهة والفنون الأدبية من جهة أخرى، إنما نريد أن نوضح تلك الوحدة الموضوعية، ونبين التماسك العضوي، ونؤكد الترابط الفني الدقيق.

والمراد بالوحدة الموضوعية أن يكون العمل الفني متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك، بحيث إن كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزئية واحدة، لأن العمل الفني يستغني عنها، أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها، وينبغي أن نقرر ابتداء أن القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين الفنية والدينية ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى، فتكتمل بذلك وحدة الأحداث الموضوعية في القرآن الكريم[١].

إن القرآن الكريم يصور وحدة الأحداث الموضوعية في تسلسل فريد تجعل المتتبع للسرد القرآني خاصة في السورة التي تتحدث عن موضوع واحد، يحس بالسبك المتكامل في وحدة الموضوع من خلال السور القرآنية.

ويقول العلامة الشاطبي في موافقاته عن الوحدة الموضوعية: «إن السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها تكون قضية واحدة، أي تهدف إلى غرض واحد أو تسعى لإتمامه، وإن اشتملت على العديد من المعاني كسورة المؤمنون»[٢].

وهناك منهج آخر في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وهو المنهج

(١) بتصرف من الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، عليه السلام، للدكتور حسن محمد باجودة، طباعة دار الكتب الحديثة، القاهرة، دون تاريخ، ص ٢٥.

(٢) كتاب الموافقات للإمام الشاطبي، مجلد ٣، ص ٢٤٩.

الذي يقوم على جمع بعض الآيات المتفرقة في موضوع واحد وترتيبها حسب النزول مع الوقف على أسباب النزول ودراستها دراسة منهجية موضوعية كاملة لتعطينا موضوعاً واحداً له وحدة موضوعية متكاملة متناسقة لا تباين فيها ولا اختلاف، ومن الظواهر القرآنية الملفتة للنظر والتي تأسر القلب ظاهرة تكرار الموضوع الواحد في سور مختلفة وبأساليب متباينة[1].

فالقرآن الكريم وصف الإنسان بأوصاف متعددة في أماكن متعددة في السورة المكية تارة، وفي السور المدنية تارة أخرى، نجد في السور المكية أن الله تعالى يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٩٦/٦-٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: ١٠٠/ ٦]، وفي سورة الكهف: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٤].

في السور المدنية يقول تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٤/ ٢٨]. فهذه الأوصاف تكشف الإنسان وتظهره على حقيقته في تناسق تام وفي موضوع واحد رغم اختلاف الآيات والسور.

وكذلك نجد وحدة الموضوع في آيات كثيرة مثل الآيات التي تتحدث عن الخمر والقتال، تكسب وحدة الموضوع في القرآن الكريم أهمية قصوى، إن كل تلك القضايا التي تناولها القرآن عبر آياته إذا جمعت تكون موضوعاً واحداً متكاملاً وهو ما نسميه بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ذلك أن القرآن الكريم يطرق الموضوع الواحد بعدة أساليب وفي أماكن كثيرة مع ترابط الآيات والسور في موضوع واحد، فيمكننا أن نعرِّف الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم باختصار بأنها «هي وحدة الموضوع في القرآن

---

(١) كتاب الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمود محمد حجازي، طباعة دار الكتب الحديثة، مصر، ص ٢٥.

الكريم مشتملاً على منهجية البحث في جمع الآيات التي تتعلق بموضوع واحد وترتيبها حسب النزول مع بحثها في سورتها لبيان العلاقة بما قبلها وبما بعدها، وبحث تسلسل الموضوع في السورة الواحدة للوصول للغاية المنشودة والتي هي الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم من خلال سوره وآياته»[١].

معنى الوحدة الموضوعية

أما بالنسبة إلى معنى الوحدة فهي كون الشيء بحيث لا ينقسم، وتطلق ويراد بها عدم التجزئة والانقسام، والموضوعية في استعمال اللغة: وضع يضع موضعاً وموضوعاً، والوضع يطلق على الحط مثل: وضعت رحلي: «حططته»، ووضعت المرأة ولدها: «ألقته» واستعمل مجازاً في القرآن الكريم على عدة معان.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/١٠] بمعنى خلقها وأوجدها.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/٩٦] بمعنى بني وخصص للعبادة.

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٩/٤٧] بمعنى حملوكم على السير بسرعة لها.

والموضوع في الكتب المؤلفة «موضوع العلم» ما بحث فيه عن عوارضه الذاتية كجسم الإنسان بالنسبة إلى علم الطب، واللفظ العربي بالنسبة إلى النحو، والموضوعية مصدر صناعي نسبة إلى الموضوع المأخوذ من الموضع[٢].

---

(١) انظر المرجع السابق، ص ٣١.

(٢) بتصرف من الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمد حجازي، ص ٣٣ وما بعدها.

أما الوحدة الموضوعية كمركب وصفي فمعناها[١]:

اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثراً وأنه لا تباين فيه ولا اختلاف، بل يؤلف وحدة موضوعية له كاملة كما نقول بعبارة أخرى: «وحدة الموضوع».

وأما الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم فالمراد منها[٢]:

البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة، ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبحثه لنحقق الهدف، وهو الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

والمثال على ذلك التشريع في تحريم الخمر، فإننا نجد أن القرآن الكريم تعرض لها في أربع سور، وفي كل سورة كان له معنى وغرض، فإذا جمعنا هذه القضايا ورتبناها لخلصنا من ذلك كله إلى أن موضوع تحريم الخمر الذي ذكر في أربع سور يكوّن وحدة موضوعية تامة كاملة هي تحريم الخمر تحريماً كاملاً، وإنما سلك القرآن فيها مسلك التدرج والتربية الحكيمة.

ولو أخذنا مثالاً آخر كمسألة القتال أو الربا أو العقيدة نجد أن القرآن تكلم عنها كثيراً وتعرض لها في شتى صورها المختلفة ولفت النظر إلى الكون كله وما فيه، وبعد البحث والدقة في الفهم نخلص إلى حقيقة واحدة هي: أن كل هذه القضايا التي ذكرت تكون وحدة موضوعية كاملة.

والوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ترتكز على[٣] تكرار الموضوع الواحد في القرآن الكريم، وذكر الموضوع غير تام في سورة واحدة، وكمال الوحدة الموضوعية وتناسقه في جميع السور التي تكرر فيها الموضوع، وعدم

---

(١) بتصرف من الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمد حجازي، ص ٣٣ وما بعدها.

(٢) بتصرف من الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمد حجازي، ص ٣٣ وما بعدها.

(٣) راجع الوحدة الموضوعية للدكتور حجازي، ص ٣٥.

كمال الوحدة الموضوعية بالنسبة إلى كل سورة ذكر فيها الموضوع على حدة، فهذه هي المرتكزات الهامة التي ترتكز عليها الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

المبحث الثاني

أمثلة للوحدة الموضوعية في القرآن الكريم

ونريد بالأمثلة هنا على تعددها واختلافها نوعين من الأمثلة. النوع الأول: الآيات المتفرقة التي تتحدث في موضوع واحد، والنوع الثاني: السورة أو السور القرآنية التي تتحدث في موضوع واحد.

المثال الأول: جمع الآيات المتفرقة والتي تتحدث في موضوع واحد، إذا أراد الباحث أن يطرق مثل هذا الموضوع من موضوعات القرآن الكريم، لا بد أن يكون تصوراً لأبعاد الموضوع، وأن يتدرج في جمع المادة العلمية متبعاً الخطوات التالية[1]:

(أ) أن يختار عنواناً للموضوع القرآني الذي يريد البحث في آياته بعد تحديد معالم حدوده ومعرفة أبعاده.

(ب) أن يجمع بقدر الإمكان كل الآيات التي تتعلق بالموضوع، أو تشير إلى جانب من جوانبه.

(ج) أن يرتب الآيات حسب النزول مكية كانت أو مدنية.

(د) دراسة تفسير الآيات بالرجوع إلى كتب التفسير التحليلي، ولا بد من التعرف إلى دلالات الألفاظ واستعمالاتها والروابط بين الألفاظ في الجملة، وبين الجمل في الآية، وبين الآيات التي تتحدث على الموضوع.

---

(١) راجع مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم، ص ٣٧ وما بعدها.

(هـ) بعد الإحاطة بمعاني الآيات مجتمعة يحاول الباحث أن يستنبط العناصر الأساسية للموضوع من خلال التوجيهات القرآنية إن أحاط بها. وللباحث أن يقدم أو يؤخر العناصر حسب أهميتها في موضوع الآيات.

(و) ثم يلجأ الباحث بعد ذلك إلى التفسير الإجمالي في عرض الأفكار لبحثه مستشهداً بالأحاديث النبوية، وفهم الصحابة، رضوان الله عليهم، لنصوص آيات القرآن الكريم.

(ز) كما لا بد للباحث من الالتزام بمنهج البحث العلمي، فإن كان الموضوع متشعب المباحث والمجالات، فلا بد من وضع تمهيد يبين الباحث فيه منهجه في تناول الموضوع، ثم يقسم الموضوع إلى أبواب وفصول ومباحث، ويجعل للباب عنواناً وللفصل كذلك، وللمبحث عنواناً خاصاً به، أما إذا كان الموضوع محدد المعالم، واضح المجالات، قليل العناصر، فيمكن أن يجعل الباحث بحثه في شكل مقالة علمية تتكون من المقدمة والموضوع والخاتمة متناولاً القضية بأسلوب علمي رصين.

(ح) وليكن هدف الباحث إبراز حقائق القرآن الكريم مع ذكره حكمة التشريع وجماله ووفائه بحاجات البشر وملاءمته للفطرة السليمة وإطلاقه للطاقات الإيجابية في الإنسان.

ونأخذ مثالاً على ذلك: صفات الأنبياء عليهم السلام: إذا تتبعنا القرآن الكريم واستعرضنا آياته التي تتحدث عن الأنبياء الكرام نجد فيها الذكر العطر والثناء الحسن على هؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله الصالحين الذين أكرمهم الله بالنبوة ليكونوا حملة الهداية والإصلاح وقادة ركب الإنسانية إلى السعادة، ومن صفاتهم في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٧٣].

وصفات الأنبياء والرسل تتلخص في الآتي[(١)]:

(١) الصدق: وهذه الصفة ملازمة للنبوة، وهي وإن كانت ضرورية للبشر، إلا أنها بالنسبة إلى دعوة الأنبياء صفة لازمة، ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى في حق النبي الكريم ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨)﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٤٤-٤٨].

(٢) الأمانة: وهو أن يكون النبي أميناً على الوحي يؤديه دون زيادة أو نقصان بلا تحريف ولا تبديل، فالأنبياء مؤتمنون على الوحي، قال تعالى في وصف النبي: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٧/ ٦٨] وقال عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم: ٥٣/ ٣-٤].

(٣) التبليغ: وهذه صفة ملازمة للرسالة قال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧]، فكل رسول مكلف بالتبليغ وكل نبي قد بلغ قومه، ومنهم نوح وصالح وهود وشعيب وغيرهم من أهلك الله أقوامهم لعدم استجابتهم للدعوة، وكل من هؤلاء يقول لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧/ ٩٣].

(٤) الفطانة: وهي الذكاء والنباهة، فلم يبعث أحد من الأنبياء إلا وكان على جانب عظيم من النباهة والذكاء مع كمال العقل والرشد ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٤].

---

(١) انظر هذه الصفات كاملة في كتاب دراسات في التفسير الموضوعي، الألمعي، ص ٢٢٣ وما بعدها.

وإذا كان البشر يعتريهم الضعف والشيخوخة ويصل بعضهم إلى حالة (الخرف) فإن الأنبياء يظلون على رجاحة العقل وقوة التفكير مهما امتدت أعمارهم بعناية الله وحفظه لهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(٥) السلامة من العيوب المنفرة: خَلْقية أو خُلُقية تنفر الناس منهم، والأمراض المنفرة كالبرص والجذام لا يمكن أن تصيب أحد الأنبياء عليهم السلام، وما روي عما أصاب نبي الله أيوب، عليه السلام، فهو من الإسرائيليات الكاذبة التي لا يعتمد عليها، وقد ذكر لنا القرآن أن هناك ضراً أصابه فدعا ربّه فكشف الله عنه هذا الضرّ قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٣-٨٤]. ونسب ما أصابه من ضر إلى الشيطان لأن الشيطان كان يوسوس إليه ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٤١]، وظاهر الآيات أن الضر الذي أصابه كان في جسمه وأهله، وهذا النوع من الضر يلحق بالبشر ويلحق بالأنبياء، فإن المرض يعتريهم كالموت، وليس في ذلك ما ينقص من قدرهم أو مكانتهم.

(٦) العصمة: سميت العصمة عصمة، لأنها تمنع من ارتكاب المعصية، وأما في الشرع: فهي حفظ الله لأنبيائه ورسله من الوقوع في الذنوب والمعاصي وارتكاب المنكرات والمحرمات، فهم معصومون من الصغائر والكبائر، بعد النبوة باتفاق، وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع منهم بعض المخالفات اليسيرة التي لا تخل بالمروءة ولا تقدح بالكرامة والشرف[1].

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٠٨.

فهذا نموذج للتفسير الموضوعي لبعض الآيات التي تتعلق بموضوع واحد هو صفات الأنبياء كما جاءت في القرآن الكريم.

والمثال الثاني: التفسير الموضوعي لسورة من القرآن الكريم تشتمل على وحدة موضوعية:

قبل البدء في تفسير السورة لا بد من دراسة أولية للسورة تحت عنوان «بين يدي السورة» تتناول فضل السورة ومميزاتها وسبب تسميتها إن وجد، وسبب النزول لأنها تعين على التعرف على موضوع السورة، ثم التعرف على الهدف الأساسي للسورة، وذلك من خلال استعراض الأحداث والقضايا الأساسية التي تناولتها السورة والرابط الذي يربط تلك القضايا بعضها مع بعضٍ، وكذلك يمكن التعرف على هدف السورة من خلال الفترة الزمنية التي نزلت فيها السورة، ومن ذلك نجد أن السور المكية تناولت قضايا الإيمان بالله وحده، والإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بالرسالات السماوية، والدعوة إلى أمهات الأخلاق، وأما السور المدنية فقد كان طابعها بناء المجتمع الإسلامي على أسس من الإيمان والطاعة والتشريعات التفصيلية في شؤون الحياة، وحماية المجتمع الإسلامي من الأخطار الداخلية والخارجية بكشف خطط المتآمرين، وهتك أستار المنافقين وأوليائهم من اليهود الماكرين.

هنالك سور كثيرة في القرآن الكريم تشكل وحدة موضوعية كسورة البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة ويوسف والكهف والنور، ولكننا سنتعرض بالمثال لا الحصر لثلاث سور هي: الأنعام، ويوسف، والكهف.

المثال الأول: الوحدة الموضوعية في سورة الأنعام[(١)]

إن الموضوع الذي تحدثت عنه السورة هو العقيدة الإسلامية من جميع جوانبها بدءاً بالآيات التي تناولت الوحدانية بكل معانيها، فقد تطرقت الآيات في سورة الأنعام لتوحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتوحيد الولاية التشريعية، بمعنى أنه ينبغي أن نعتقد أن الله وحده هو المشرع، وتوحيد الحاكمية بمعنى أن الله سبحانه وتعالى له الحكم في كل شيء، كما تناولت سورة الأنعام في وحدتها الموضوعية وصايا الدين الإسلامي الجامعة، والأسس التشريعية، وكذلك تناولت جانباً هاماً في العقيدة الإسلامية جانب الأصول الإيمانية، وبذلك تكون سورة الأنعام وحدة موضوعية تتناول العقيدة الإسلامية متمثلة في الآيات التي تحدثت عن قضية الألوهية وقضية الوحي والرسالة وقضية البعث والجزاء.

المثال الثاني: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام[(٢)]

تناولت سورة يوسف، عليه السلام، وحدة الأحداث الموضوعية بشقيها القصصي والتعقيبي، والتي تهدف إضافة لإرساء أسس العقيدة، إلى تسلية المصطفى ﷺ وهو ما يزال في مكة المكرمة، ويتبين الباحث أدوات الشخصيات المختلفة في سبيل تحقيق الوحدة الموضوعية، فالشخصية الرئيسية التي تدور حولها الأحداث في سورة يوسف هو يوسف، عليه السلام، كما يجد الباحث من خلال الوحدة الموضوعية لهذه السورة الكريمة دراسة للمجتمعات المكية والشامية والمصرية، وكذلك الدروس المستفادة من سورة يوسف عليه السلام.

---

(١) راجع الوحدة الموضوعية في سورة الأنعام رسالة دكتوراه، للدكتور عباس عوض الله عباس، جامعة أم درمان الإسلامية.

(٢) رسالة للدكتور حسن محمد باجودة، طباعة دار الكتب الحديثة، مصر.

لذلك فإن قصة يوسف، عليه السلام، ينبغي أن تتلى كلها متوالية الحلقات والمشاهد من البداية حتى النهاية، فالسورة ذات طابع خاص منفرد في احتوائها على قصة يوسف، عليه السلام، كاملة. وقصة يوسف، عليه السلام، وحدة موضوعية متماسكة، وهي أطول قصة في القرآن الكريم تجتمع حلقاتها كلها في سورة واحدة، حيث إننا نجد أن قصة موسى، عليه السلام، مثلاً موزعة على سور القرآن الكريم من سورة البقرة إلى سورة النازعات تارة بإسهاب شديد أو إيجاز بديع تارة أخرى، لذلك فإننا نجد في سورة يوسف الخصائص الفنية البحتة للقصة من خصائص الموضوع وخصائص العرض والأداء، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ١٢/٣].

يقول الإمام القرطبي: «ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر والإعجاز لمن تأمل» اهـ[(١)].

ونجد أن كل العظات المبثوثة في حنايا السورة تتناسب مع القصة، والقصة تتكامل معها لتحقيق القضية الكبرى التي جاء بها هذا القرآن للبشرية كما جاءت بها رسالات الأنبياء في العصور اللاحقة.

المثال الثالث: الوحدة الموضوعية في سورة الكهف[(٢)]

إن القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة ففي أولها تجيء قصة

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/١١٨.

(٢) انظر دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور الألمعي، ص ١٤٥ وما بعدها.

أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس، وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذي القرنين، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، وما تبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على تلك القصص إلى جانب ذكر مشاهد الحياة ومشاهد القيامة.

أما المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها ويدور حوله سياقها فهو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة بدءاً من قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ [الكهف: ١٨/ ٤]، وختاماً بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠]، وهكذا يتساوى البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك. وبهذا يتجلى للناظر في السورة أنها منتظمة النسق، مطردة السياق، واضحة الغرض، قوية الأسلوب في أولها وآخرها وفي أثنائها في معنى واحد تلتقي عنده وحدة الموضوع في السورة الكريمة من أمثال وقصص ووعد ووعيد وتذكير وبيان.

لقد تناولت السورة قضية توحيد الله سبحانه وتعالى، فلا يخلو مقطع من المقاطع من توجيه العبادة لله سبحانه وتعالى والإخلاص له في القول والعمل وترك عبادة الطواغيت والشركاء، وكذلك الدعوة للإيمان باليوم الآخر من أبرز القضايا التي تناولتها السورة، وكذلك استهدفت السورة أمهات الأخلاق بضرب الأمثال للقيم الحقيقية، والقيم الزائفة الخادعة التي تموه الباطل وتظهره على غير حقيقته بتركها والبعد عنها مما يجعل عناصر الوحدة الموضوعية في سورة الكهف واضحة المعالم.

ولقد امتاز القرآن الكريم من جملة ما امتاز به، بأنه حين يعرض لموضوعاته، يعرض لها بطريقة لم يسبق إليها، فلا يستطيع أن يسلكها

سالك، أو أن ينتهجها ناهج، فهو في عرضه يتخذ له أسلوباً يختص به، أعجز الإنس والجن عن معارضته، فتراه حين يعرض، يأتي بوجوه متعددة وأساليب متنوعة وأفانين متجددة، يراعي المقام في كل موقف من مواقفه، ويطابق جميع مقتضيات الحال في كل عبارة من عباراته، فله في كل مقام مقال، وفي كل موضوع مجال، له طرق في الأداء لا عهد للبشر بها في أبلغ كلام، ولا مثيل لها في أفصح بيان، غاية في البلاغة، ليست لها نهاية، ونهاية في الفصاحة، لا يجاوز الفصحاء مبتداها، ثم هو فيما يعرضه من موضوعات شتى لا يهمل جانب النظر ولا يغض من شأنه، بل يحث عليه، ويدعو إليه، وتتحاكم إليه العقول في كشف الحق، وبيان الصدق، يشفع حكمه ببيان حكمته، وتوجيه شرعته، ثم يدع للسامع الحرية وحسن الاختيار، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وإن تعجب فعجب عرضه للموضوع الواحد، ذي المعنى المتحد، والهدف المشترك، فإنك تجده مع تفرقه في القرآن في أماكن عدة، ومع تباعد أوقات نزوله، وتباين أزمان وصوله، ليست بين آياته مفارقة ولا تشويه ولا تناقض، بل هي وحدة واحدة، مترابطة، متناسقة، تكون لنا صورة واحدة في أحسن تقويم، وتعطينا منظراً متألقاً في أبدع تنظيم، وتصور لنا كائناً متناسق الأعضاء، مترابط الأجزاء، متكامل البناء، جيد السبك، قوي المعنى، متين النظر، لا تناكر بين معانيه في العقول والأفهام، ولا تباين بين مبانيه في الأسماع والآذان، بل يكمل بعضه بعضاً، ويأخذ بعضها بحجز بعض، كل جزء يستدعي الآخر، وكل لفظ يقع مع الثاني في موقعه، وخلاصة القول: إن القرآن العظيم في عرضه لموضوعات سوره وآياته فريد في هذا الباب، ونجد أن الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم تجعل القارئ يستكشف هداية القرآن ومواضعه وما جاء به لأداء مهمته ورسالته[١].

---

(١) راجع دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني للدكتور أحمد جمال العمري، طباعة مكتبة=

وفي معرض حديثنا عن الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم لا بد أن نتحدث عن الوحدة الموضوعية في السور القصيرة كمثال ثابت لوحدة الموضوع فيها، ونأخذ مثالاً على ذلك سورة الإخلاص، التي كان موضوعها تقرير وحدانية الله سبحانه وتعالى، وسورة الكافرون التي كان موضوعها المفاصلة عن الكافرين، وسورتي الزلزلة والقارعة والتي تدور أحداثهما حول أحداث يوم القيامة والحساب فيه.

وهناك بعض السور القصيرة التي تتعدد أهدافها وأغراضها، ولكنها لا تخرج في الغالب عن هدفين أو ثلاثة، كسورة الطارق، التي تحدثت عن قدرة الله سبحانه وتعالى في الخلق، وعن تقرير الوحي المنزل على الرسول الكريم محمد ﷺ، وسورة الغاشية، التي تناولت أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، والاستدلال على قدرته بالمخلوقات، وسورة القلم، التي كان موضوعها الأساسي الدفاع عن شخصية رسول الله ﷺ وتحذير الكافرين من التقول عليه، وإلصاق التهم الباطلة به.

ومن هنا نقول، ومن خلال دراستنا للوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم: إننا لسنا في حاجة إلى التفسير الموضوعي في أي زمان مثل حاجتنا إليه في هذا الزمان، الذي يطالب فيه المسلمون أن نخرج لهم البحوث العلمية الصحيحة التي تنظم علاقتهم بربهم، وبمجتمعهم الكبير وأسرهم وأولادهم ومتطلبات أنفسهم، لأنه إذا كانت المباحث القرآنية متجلية للباحث بجميع نواحيها، متجهة به إلى غايتها، مبرزة لنواحي الحكمة في دعوة القرآن إليها، كان ذلك النهج باعثاً للمطلع عليه إلى أن يسلك الطريق الذي رسمه القرآن، حيث كان واضح الغاية، محدد النهاية، بارزاً في

=الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٠، ٤٤، وكذلك راجع التفسير الموضوعي للدكتور أحمد السيد الكومي، طباعة دار الهدى، مصر سنة ١٩٨٠م، ص ١٣ وما بعدها.

تصويره، باعثاً لإشباع رغبة الإنسان من موضوع إلى موضوع آخر، فالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم هو الطريق الأمثل الذي يؤدي بالناس إلى أن يفهموا القرآن، فيتبينوا اتصالهم بواقع حياتهم، حيث يرشدهم إلى الصالح منها، ويجنبهم ما يكون حذراً لهم، وعائقاً عن طريق إسعادهم، وهذه هي أمثل الطرق في إبراز موضوعات القرآن الكريم.

المحاضرة الثالثة

الولاء والبراء في القرآن الكريم

المبحث الأول

في معنى الولاء والبراء

الولاء في اللغة: ولي: الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما فاصل، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد.

والولاية: النصرة، والولاية تولي الأمر، وقيل: الوِلاية والوَلاية نحو الدِّلالة والدَّلالة، وحقيقته تولي الأمر، والولي والمولى يستعملان في ذلك كل واحد منهما يقال في معنى الفاعل أي الموالي، وفي معنى المفعول أي الموالى، فيقال للمؤمن: هو ولي الله، عز وجل، ولم يرد مولاه، وقد يقال: الله تعالى ولي المؤمنين ومولاهم ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧]، والوالي الذي في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١٣/١١] بمعنى الولي، ونفى الله تعالى الولاية بين المؤمنين والكافرين في غير آية فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾ [المائدة: ٥/٥١] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥/٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/١]، وجعل بين الكافرين والشياطين موالاة في الدنيا، ونفى بينهم الموالاة في الآخرة، ففي موالاتهم في الدنيا

قال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٩/٦٧] وقال: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧/٣٠] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٢٧] ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ﴾ [النساء: ٤/٧٦]، فكما جعل بينهم وبين الشياطين موالاة جعل للشياطين في الدنيا عليهم سلطان فقال: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٦/١٠٠]، ونفى الموالاة بينهم في الآخرة فقال في موالاة الكفار بعضهم بعضاً ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الدخان: ٤٤/٤١] ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٥]، وإذا عدي بمن لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض وترك قربه، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [المائدة: ٥/٥١]، ومن الثاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/٦٣].

والتولي قد يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء[1].

والمولى: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو الرّب والمالك والسيد والمنعم والمعتق والناصر والمحب والتابع والجار وابن العم والحليف والفقير والصهر والعبد والمعتق والمنعم عليه، ويلاحظ أن هذه المعاني تقوم على النصرة والمحبة[2].

والوَلاية، بالفتح، في النسب والنصرة والعتق. والمُوالاة، بالضم، من والى القوم، والموالاة ضد المعاداة، والولي ضد العدو، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ١٩/٤٥] وكل من عبد شيئاً من دون الله فقد اتخذه ولياً، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧] وليهم في نصرهم على عدوهم وإظهار

(١) المفردات للراغب الأصفهاني، ص ٥٤٧، ٥٤٨.

(٢) لسان العرب لابن منظور ٣/ ٩٨٥ - ٩٨٦.

دينهم على دين مخالفيه، وقيل: وليهم أي: يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم، والتولي يكون بمعنى الإعراض، ويكون بمعنى الاتباع قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٨] أي: إن تُعرضوا عن الإسلام، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٥١] معناه يتبعهم وينصرهم[١].

وقال صاحب المصباح المنير: الولي فعيل بمعنى فاعل، من وليه إذا قام به، ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٧]، ويكون الولي بمعنى مفعول في حق المطيع فيقال: المؤمن ولي الله. ووالاه موالاة وولاء من باب «قاتل» أي تابعه[٢].

مما تقدم يتضح لنا معنى الولاء في اللغة، وننتقل إلى تعريف الولاء بالمعنى الاصطلاحي فنقول:

الولاية هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً أو باطناً، فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم وإظهار الودّ لهم بالأقوال والأفعال والنوايا[٣].

والبراء في اللغة

برئ: إذا تخلص، وبرئ: إذا تنزه وتباعد، وبرئ: إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩/ ١] أي إعذار وإنذار، والبراء والبريء سواء، وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشمس وهي أول ليلة من الشهر[٤].

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي، ٤/ ٢٩٤.

(٢) المصباح المنير للفيومي، ٢/ ٨٤١.

(٣) كتاب الإيمان لنعيم يس، ص ١٤٥.

(٤) لسان العرب لابن منظور، ١/ ١٨٣.

تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحي

هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار، وهو التبرؤ من الجاهلية بجميع مظاهرها من الشرك والوثنية، وهي تعني المفاصلة بين الكفر والإيمان، والشرك والتوحيد، والحق والباطل ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة: ٩/١] فالتبرؤ هو الخروج من الكفر والشرك والمعصية، والتميز من الكافرين المشركين العاصين. وبعبارة أخرى هو الهروب من دون الله إلى دين الله، كما أُجمل في النفي ثم الإثبات في كلمة التوحيد لا إله إلا الله[١].

والتبرؤ من الجاهلية يبدأ من القلب، ويستقر فيه بالمفاصلة الشعورية، والعداوة والبغضاء والإعراض الباطني، ثم هو يظهر على أشده باللسان والجوارح، وفي هجر الأرض وإعلان الحرب وإهدار الدم والمال وقطع صلات القربى وروابط القوم والعشيرة عندما تكون مصلحة الإسلام العليا في ذلك، وفيما بين الحالين يظهر التبرؤ بما يناسب الحال من المدارة والمصابرة التي تظهر في تمعر الوجه، وغلظة القول، والعزلة الاجتماعية، والمقاطعة التامة بكافة أشكالها.

إن الحكمة وحدها التي تحدد نوع التبرؤ ودرجته، ولكل ميدان سلاحه، ولكل حال أسلوبه، ولذلك فإن التبرؤ بالقلب ثابت دائم، وفي غيره البعد عن التشبه بمظهر الكفار فإن هزيمة المظهر هي بداية الهزيمة النفسية والمعنوية فمن شابه قوماً صار واحداً منهم.

وإذا عرفنا الولاء والبراء في اللغة والاصطلاح بكل ما تحمل من معنى

(١) راجع هذه المعاني الاصطلاحية في كتاب الولاء والبراء في الإسلام للشيخ محمد سعيد القحطاني، ط دار طيبة، ط ١٤١٨هـ، ص ٨٩، ٩٠، وكذلك التفسير الموضوعي للدكتور الألمعي، ص ٣٠٦، ٣٠٧.

فإن القرآن الكريم تناول هذه القضية تناولاً شاملاً حدد فيه كل الأبعاد التي تجعل المؤمن الحق يحب في الله تعالى، ويبغض في الله تعالى، ويعادي في الله تعالى، فكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) هي فيصل الأمر بين الولاء والبراء الذي هو من معتقدات العقيدة ولوازمها، كما أنه يجب موالاة المؤمنين، والقرآن الكريم يحدثنا عن وجوب البراء من جميع أعداء الله وإظهار عداوتهم من كفار ومشركين وأهل الكتاب من يهود ونصارى ومن المنافقين المحادين لله ورسوله ولو كانوا من ذوي القربى، وأبانت آيات القرآن البينات صور التولي المنهي عنه، كما فرقت الآيات بين الموالاة والمعاملة بالحسنى، وسنتناول هذه المعاني بالتفصيل في المباحث التالية إن شاء الله.

المبحث الثاني

الولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم في سوره المختلفة يجد في سياق هذه الآيات حقيقة أن الولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٨].

يقول الإمام القرطبي، رحمه الله، في تفسير هذه الآية: «فيه مسألتان:

الأولى: قال ابن عباس: نهى المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء، ومثل: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ وهناك يأتي بيان هذا المعنى، ومعنى ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي فليس من حزب الله ولا من أوليائه في شيء مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾.

الثانية: فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ قال معاذ بن جبل ومجاهد:

كانت التقية في جدة الإسلام قبل قوة المسلمين، أما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوهم، قال ابن عباس: هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يقتل ولا يأتي إثماً، وقال الحسن: التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة، ولا تقية في القتل، وقرأ جابر بن زيد ومجاهد والضحاك: «إلا أن تتقوا منهم تقية». وقيل: إن المؤمن إذا كان قائماً بين الكفار فله أن يداريهم باللسان إذا كان خائفاً على نفسه وقلبه مطمئن بالإيمان، والتقية لا تحل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم، ومن أكره على الكفر، فالصحيح أن له أن يتصلّب ولا يجيب إلى التلفظ بكلمة الكفر، وأمال حمزة والكسائي (تقاة) وفخم الباقون، وأصل (تقاة) وقتة على وزن فعلة مثل تؤدة وتهمة قلب الواو تاء والياء ألفاً، وروى الضحاك عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري وكان بدرياً تقياً، وكان له حلف من اليهود فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال عبادة: يا نبي الله إن معي خمس مئة رجل من اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معي أستظهر بهم على العدو. فأنزل الله تعالى ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، وقيل: إنها نزلت في عمار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ قال الزجاج: أي يحذركم الله إياه، ثم استغنوا عن ذلك بذا وصار المستعمل، وقيل: المعنى ويحذركم الله عقابه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وإلى جزاء الله المصير، وفيه إقرار بالبعث[1].

فالآية توضح أن ولاء الكافرين يناقض عقيدة المؤمن بالله تبارك وتعالى، فعليه كما تأمر الآية ألاّ يوالي الكافرين.

---

(١) الجامع لأحكام القرآني للقرطبي مكتبة الرياض الحديثة ٤/ ٥٧.

ويقول الحق تبارك وتعالى في ذات المعنى في سورة النساء: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: ٤/٨٩].

فمعنى الآية: أي هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها وما ذاك إلا بشدة عداوتهم وبغضهم لكم ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي تركوا الهجرة. قال العوفي عن ابن عباس، وقال السدي: أظهروا كفرهم ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك(١).

ويقول تعالى في موضع آخر من كتابه العزيز: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥/٥١].

إن الله تعالى نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاءَ على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً وحليفاً وولياً من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان، وقد يجوز أن تكون الآية نزلت في شأن عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي ابن سلول وحلفائهما من اليهود ويجوز أن تكون نزلت في أبي لبابة بسبب ما كان منه في بني قريظة. والصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم على ما عمَّ.

وأما قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فإنه يعني بذلك أن بعض اليهود أنصار

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير طباعة مكتبة دار الفيحاء، دمشق، ومكتبة دار السلام، الرياض، ١٩٩٤م، ١/٧٠٨.

بعضهم على المؤمنين، ويد واحدة على جميعهم، وأن النصارى كذلك بعضهم أنصار بعض على من خالف دينهم وملتهم معرفاً بذلك عباده المؤمنين إن كان لهم أو بعضهم ولياً فإنما هو وليهم على من خالف ملتهم ودينهم من المؤمنين كاليهود والنصارى فكونوا لهم حرباً، فقال تعالى ذكره للمؤمنين: فكونوا أنتم أيضاً لبعضكم أولياء بعض ولليهودي والنصراني حرباً كما هم لكم حرب، وبعضهم لبعض أولياء، لأن من والاهم فقد أظهر لأهل الإيمان الحرب ومنهم البراءة، وأبان قطع ولايتهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ يعني تعالى ذكره ومن يتولى اليهود والنصارى دون المؤمنين فإنه منهم، يقول: فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متولٍّ أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه، ولذلك حكم من حكم العلم لنصارى بني تغلب في ذبائحهم ونكاح نسائهم وغير ذلك من أمورهم وأحكامهم فصار من بني إسرائيل لموالاتهم إياهم ورضاهم بملتهم ونصرتهم لهم عليها، وإن كانت أنسابهم لأنسابهم مخالفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن الله لا يوفق من وضع الولاية في غير موضعها فوالى اليهود والنصارى مع عداوتهم لله ورسوله والمؤمنين على المؤمنين وكان لهم ظهيراً ونصيراً، لأن من تولاهم فهو لله ولرسوله حرب ظالم يضع الشيء في غير موضعه[1].

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري، طباعة دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ٤/ ١٧٧.

إن قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ نزلت في أهل اليمن قوم أبي موسى الأشعري؛ أظهروا الإسلام في عهد رسول الله ﷺ ثم ارتدوا على أدبارهم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وأن الله سوف يستبدل المرتدين بقوم آخرين مؤمنين يحبهم ويحبونه رحماء بالمؤمنين أشداء أقوياء على الكافرين غلظاء عليهم، يجاهدون في قتال أعداء الله على النحو الذي أمر الله بقتالهم والوجه الذي أذن لهم به، ويجاهدون عدوهم ولا يخافون لومة لائم، يقول: ولا يخافون في ذات الله أحداً ولا يوقفهم عن العمل بما أمرهم الله به من قتال عدوهم لومة لائم لهم في ذلك، وأما قوله: ذلك فضل الله، فإنه يعني هذا النعت الذي نعت به تعالى ذكره من أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، فضل الله الذي تفضل به عليهم، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه منة عليه وتطولاً، والله واسع جواد بفضله على من جاد به عليه.

وتتداخل الآيات التي تتحدث عن واجبات عقيدة المسلم والتزامه بمنهج الحق تبارك وتعالى في وجوب الولاء والبراء من أعداء الله تعالى فيقول سبحانه وتعالى في خواتيم سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢٢].

إنها المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان، والانحياز النهائي للصف المتميز، والتجرد من كل عائق وكل جاذب، والارتباط بالعروة الواحدة بالحبل الواحد ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما يجمع

إنسان في قلب واحد ودِّين: ودّاً لله ورسوله وودّاً لأعداء الله ورسوله، فإما إيمان أو لا إيمان، أما هما معاً فلا يجتمعان ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ﴾ فروابط الدم والقرابة هذه تنقطع عند حدّ الإيمان، إنها يمكن أن تراعى إذا لم تكن هناك محادّة وخصومة بين اللوائين؛ لواء الله ولواء الشيطان، والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان، فأما إذا كانت المحادّة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد، ولقد قتل أبو عبيدة أباه في بدر، وهمَّ الصِّديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن، وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير، وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة، وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ فهو مثبت في قلوبهم مكتوب في صدورهم بيمين الرحمن، فلا زوال له ولا اندثار ولا انطماس فيه ولا غموض ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾ وما يمكن أن يفرقوا هذه الفرقة إلا بروح من الله، وما يمكن أن تشرق في قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح الذي يمدهم بالقوة والإشراق، ويصلهم بمصدر القوة والإشراق ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ جزاء ما تجردوا في الأرض من كل رابطة وآصرة، ونفضوا عن قلوبهم كل عرض من أعراضها الفانية ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ وهذه صورة وضيئة راضية مطمئنة ترسم حالة المؤمنين هؤلاء في مقام عال رفيع، وفي جو راض وديع، ربهم راض عنهم، وهم راضون عن ربهم، انقطعوا عن كل شيء ووصلوا أنفسهم به، فتقبلهم في كنفه، وأفسح لهم في جناته، وأشعرهم برضاه فرضوا، رضيت نفوسهم هذا القرب وأنست به واطمأنت إليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله المختارون، فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق

وهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله تختلف ألوانهم، وتختلف أوطانهم، وتختلف عشائرهم، وتختلف أسرهم، ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة، ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة لا من أرض ولا من جنس ولا من وطن ولا من لون ولا من عشيرة ولا من نسب ولا من صهر(١).

ويقول عزّ من قائل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٤].

ويقول صاحب الظلال في تفسير هذه الآية:

مرَّ إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانيها المسلمون المهاجرون وفيهم أسوة حسنة ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم، وهو الكفر بهم والإيمان بالله، وهي العداوة، والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده، وهي المفاصلة الحاسمة الجامة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان، وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل، وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين، ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه، وهو مشرك، ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، طباعة دار الشروق، القاهرة بيروت، ط ٥. ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، ٦/ ٣٥١٤.

بذوي قرباهم من المشركين، فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك، قال وهو يرجو إيمانه ويتوقعه، ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله وتوكل عليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهذا التسليم المطلق لله هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه وإبراز ما في ثناياها من ملامح وسمات وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم(١).

ويتضح لنا مما سبق أن الولاء والبراء من لوازم العقيدة، وأن الولاء والبراء هو الركن الهام من أركان العقيدة الإسلامية، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي ألا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله»(٢).

وإذا كانت أهداف أعداء الإسلام من ملحدين ويهود ونصارى ومستعربين وصهيونية عالمية وشيوعية عالمية هي تمييع عقيدة المسلمين، وتذويب شخصيتهم المنفردة، لجعلهم حميراً للشعب المختار كما تنص على ذلك «بروتوكولاتهم» فإنه يتضح للمسلم أهمية هذا الموضوع حتى يحذر هو ومن معه، بل يحذر المسلمون عامة من الانزلاق في مهاوي الردى، خاصة وإن الدعوات المشبوهة الملحدة تدعو إلى ما يسمى بالأخوة والمساواة، وأن

---

(١) انظر في ظلال القرآن سيد قطب، ٦/ ٣٥٤٢.

(٢) الاحتجاج بالقدر لشيخ الإسلام ابن تيمية، طباعة المكتب الإسلامي ١٣٩٣هـ، ص ٦٢.

الدين لله والوطن للجميع وكل الشعارات التي يعرفها أعداء الإسلام يجب أن تقابل بالرفض التام[١].

ونصوص السنة النبوية تبين تلك المعاني وتؤكدها في وضوح تام، فعن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ بايعه على أن «تنصح لكل مسلم وتبرأ من الكافر»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»[٣].

فهذه النصوص النبوية صريحة في إثبات أن الولاء والبراء من لوازم العقيدة ومقتضياتها.

المبحث الثالث

وجوب موالاة المؤمنين

عرفنا في المبحث السابق أن عقيدة الولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها، فنتعرف في هذا المبحث على وجوب موالاة المؤمنين من مودتهم ومحبتهم ونصرتهم من خلال بعض الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذا الجانب الهام من عقيدة الولاء والبراء.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥/٥٥-٥٦].

---

(١) بتصرف من كتاب الولاء والبراء في الإسلام د أحمد سعيد القحطاني، ص ٤٥.

(٢) المسند للإمام أحمد بن حنبل، ٤/٣٥٧ - ٣٥٨، ط الثانية، ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.

(٣) الجامع الصغير للسيوطي، ١/١٦٩.

يقول الإمام القرطبي، رحمه الله، في تفسير هذه الآيات: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ قال جابر بن عبد الله: قال عبد الله بن سلام للنبي ﷺ: إن قومنا قريظة والنضير قد هجرونا، وأقسموا ألا يجالسونا، ولا نستطيع أن نجالس أصحابك لبعد المنازل، فنزلت هذه الآية، فقال: رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء. و ﴿الَّذِينَ﴾ عام في جميع المؤمنين، ومعنى يقيمون الصلاة: يأتون بها في أوقاتها بجميع حقوقها، والمراد صلاة الفرض ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وأفرد الركوع بالذكر تشريفاً، وقيل: المؤمنون وقت نزول الآية بين مقيم الصلاة وراكع، قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي من فوض أمره إلى الله، وامتثل أمر رسوله ووالى المسلمين فهو من حزب الله، وقيل: أي من يتولَّ القيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ حزب الله جند الله وأنصار الله، والمؤمنون حزب الله، فلا جرم غلبوا اليهود بالسبي والقتل والإجلاء وضرب الجزية، والحزب صنف من الناس، فكأنّ المتحزبين مجتمعون كاجتماع أهل النائبة عليها، وحزب الرجل أصحابه، والحزب الورد «حزبت القرآن»، والحزبة الطائفة، وتحزبوا: اجتمعوا، والأحزاب الطوائف التي تجتمع في محاربة الأنبياء، وحَزبَهُ أمر أي أصابه»[1].

ويقول سبحانه وتعالى في معنى المحبة والمودة والاتحاد والتعاطف بين المؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٧١].

قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: قلوبهم متحدة في التوادّ والتحابّ والتعاطف ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بعبادة الله تعالى وتوحيده وكل ما

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٦/ ٢٢١ - ٢٢٢.

اتبع ذلك، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن عبادة الأوثان وكل ما اتبع ذلك، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي الصلوات الخمس قاله ابن عباس، وبحسب هذا تكون الزكاة هنا المفروضة ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ﴾ في الفرائض، ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما سن لهم، والسين في قوله: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ مدخلة في الوعد مسهلة لتكون النفوس متعلقة برجائه وفضله تعالى زعيم بالإنجاز[١].

إن ولاية المؤمنين بعضهم لبعض في هذه الآية تعم ولاية النصرة وولاية الأخوة والمودة، ولكن نصرة النساء تكون فيما دون القتال بالفعل، فللنصرة أعمال كثيرة مالية وبدنية وأدبية، وكان نساء النبي ﷺ ونساء أصحابه يخرجن مع الجيش يسقين الماء، ويجهزن الطعام، ويضمدن جراح الجرحى، وكان النساء يحرضن على القتال، ويرددن المنهزم من الرجال، كما كانت تحرض الخنساء رضي الله عنها أبناءها على القتال، وإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض في الولاية العامة من أخوة ومودة وتعاون وتراحم، حتى شبه النبي ﷺ جماعتهم بالجسد الواحد وبالبنيان يشد بعضه بعضاً، وولاية النصرة في الدفاع عن الحق وعن العدل والملة والوطن وإعلاء كلمة الله عز وجل[٢].

وتمضي الآيات في هذا السياق فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/٩-١٠].

---

(١) باختصار من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٨/٢٠٣.

(٢) تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار» للشيخ محمد رشيد رضا، طباعة دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١/٥٤٢.

يقول الإمام ابن كثير، رحمه الله، في تفسير هذه الآيات: يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين المسلمين الباغين بعضهم على بعض ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ فسماهم مؤمنين مع القتال، وقوله: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: حتى ترجع إلى أمر الله، وتسمع للحق وتطيعه كما ثبت في الصحيح عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قلت: يا رسول الله نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه»[1] وذكر سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال فأنزل الله هذه الآية فأمر بالصلح بينهما، وقوله: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط، وهو العدل لأن الله يحب المقسطين، فهم على منابر من نور يوم القيامة، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي الجميع إخوة في الدين، وفي الصحيح: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وفي الصحيح أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه[2]، وقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعني الفئتين المقتتلتين ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وهذا تحقيق فيه تعالى للرحمة لمن اتقاه[3].

ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٢٤٤٣.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦ من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٧/ ٣٧٥ - ٣٧٦.

والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة ليردوهم إلى الصف، والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض إمامة واحدة تقام على طاعة الله ورسوله، تحكم الشريعة، وتبسط العدل والشورى والأمن لكل الرعية، فتوقف الظالم وهذا هو مطلق العدل الذي يريده الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ فهذه الآية الكريمة دليل واضح على وجوب موالاة المؤمنين ونصرهم والعمل على وحدتهم حتى يكونوا جميعاً يداً على من سواهم وعاداهم حتى تحقق لهم العزة من الله القوي العزيز[١].

يتضح لنا من خلال هذا المبحث أن المحبة في الله هي الوشيجة العظمى التي يلتقي عليها المؤمنون، ويلتقون عليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وعلى هذه الوشيجة تبنى حقوق الأخوة الإسلامية الإيمانية من نصرة ومودة وزيارة وإكرام وسلام وحماية للعرض والدم والمال والمواساة والتعاضد تحقيقاً لواجب موالاة المؤمنين.

المبحث الرابع

وجوب البراء من جميع أعداء الله وإظهار عداوتهم

تحدثت آيات القرآن الكريم عن وجوب البراء من جميع أعداء الله سبحانه وتعالى وإظهار عداوتهم، ويشمل الحديث في وجوب البراء من أعداء الله في هذا المبحث وجوب البراء من الكفار والمشركين، ووجوب البراء من أهل الكتاب، ووجوب البراء من المنافقين، ووجوب البراء من المحادّين لله ورسوله.

---

(١) انظر ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٣٤٣، والولاء البراء للقحطاني، ص ٢٦٧.

(١) وجوب البراء من الكفار والمشركين

يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٤].

هذا خطاب للمؤمنين في أمر له علاقة بما كان بينهم وبين اليهود، فهو متعلق بماضي السياق الخاص ببني إسرائيل، نهاهم تعالى عن كلمة كانوا يقولونها وأمرهم بكلمة خير منها تفيد ما كانوا يريدونه منها ﴿ٱنظُرْنَا﴾ وأمرهم بالسماع للنبي ﷺ ليعوا عنه ما يقول من الدين، وهو أمر يتضمن الطاعة والاستجابة، ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لبيان أن ما صدر عن اليهود من سوء الأدب في خطاب الرسول هو أثر من آثار الكفر الذي يعذبون عليه العذاب الموجع أشد الألم، فلا بد من طاعة الرسول الكريم ﷺ في التبرؤ من المشركين والكفار[١].

تأتي الآيات القرآنية الكريمة في افتتاحية سورة التوبة معلنة في سمع الزمان وجوب البراء من الكفار والمشركين، يقول عزّ شأنه: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ

---

(١) باختصار من تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا، ١/ ٤١١.

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ٩/١-١٥].

يقول الإمام القرطبي، رحمه الله، في تفسير هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٞ﴾ تقول: برئت من الشيء أبرأ براءة فأنا منه بريء، إذا أزلته عن نفسك، وقطعت سبب ما بينك وبينه، وبراءة: رفع على خبر ابتداء مضمر تقديره هذه براءة، وقرأ عيسى بن عمر: «براءةً» بالنصب على تقدير التزموا براءة، قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ يعني إلى الذين عاهدهم رسول الله ﷺ، لأنه كان المتولي للعقود، ﴿فَسِيحُواْ﴾ أي: قل لهم: سيحوا، أي: سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين غير خائفين أحداً من المسلمين بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر، وهؤلاء الذين برئ الله منهم

ورسوله هما صنفان من المشركين؛ أحدهما كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأمهل تمام أربعة أشهر، والآخر كانت مدة عهده بغير أجل محدود فقصر به على أربعة أشهر يرتاد لنفسه ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله وللمؤمنين، يقتل حيث ما أُدرِك ويؤسر إلا أن يتوب، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر، وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر، وقيل: إن هذه الآية نزلت في أهل مكة عندما صالح الرسول ﷺ قريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، ونقض هذا العهد من قبل المشركين، كما تضمنت الآية جواز قطع العهد بين المسلمين والمشركين في حالة انقضاء مدة العهد، أو أن يخاف المسلمون من المشركين غدراً فينبذ إليهم عهدهم، قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ﴾ عطف على براءة، والأذان: الإعلان ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ جميع الخلق ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يوم عرفة، وقال ابن سيرين: يوم الحج الأكبر العام الذي حج فيه النبي ﷺ حجة الوداع وحجت فيه الأمم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ الله ورسوله بريئان منهم، ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ عن الشرك ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: أنفع لكم، ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإيمان، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي: فائتيه، فإنه محيط بكم ومنزل عقابه عليكم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المعنى أن الله بريء من المشركين إلا من المعاهَدين في مدة عهدهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ﴾ يدل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهده (نقضه) ومنهم من ثبت على الوفاء، فإذن الله لنبيه ﷺ في نقض عهد من خاس ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟﴾ ولم يعاونوا ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ المعلومة وإن كانت أكثر من أربعة أشهر ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ سلخت الشهر إذا صرت في أواخر أيامه ومدتها خمسون يوماً على ما ذكره ابن عباس، وقيل لها حرم، لأنه حرم على المؤمنين فيها دماء المشركين والتعرض لهم إلا على سبيل الخير ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عام في كل مشرك، فالأمر يقتضي جواز قتلهم بأي وجه كان ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ عام

في كل موضع ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ الأخذ هو الأسر، ومعنى ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ يرد عن التصرف إلى بلادكم والدخول إليكم إلا أن تأذنوا لهم فيدخلوا إليكم بأمان ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ﴾ المرصد هو الموضع الذي يرقب فيه العدو ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ أي من الشرك ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾ فيسقط القتل بمجرد التوبة بشرط أداء فريضتي الصلاة والزكاة ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: من الذين أمرتك بقتالهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ سأل جوارك أي: أمانك وذمامك فأعطه إياه ليسمع القرآن، أي: يفهم أحكامه وأوامره ونواهيه ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به عذابه غداً، وكيف يكون لهم عند رسول الله عهد يأمنون به عذاب الدنيا، ثم استثنى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ﴾ أي ليس العهد إلا لهؤلاء الذين لم ينقضوا ولم ينكثوا وهم بنو بكر ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ﴾ أي: فما أقاموا على الوفاء بعهدكم فأقيموا لهم على مثل ذلك ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أعاد التعجب من أن يكون لهم عهد مع خبث أعمالهم ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ﴾ يرقبوا: يحافظوا، والرقيب حافظ ﴿إِلًّا﴾ عهداً ﴿وَلَا ذِمَّةًۚ﴾ أي عهداً، وهي كل حرمة يلزمك إذا ضيعتها ذنب، وأهل الذمة أهل العقد ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يقولون بألسنتهم ما يرضي ظاهره ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: ناقضون للعهود، وكل كافر فاسق، ولكنه أراد هنا المجاهرين بالقبائح ونقض العهد، ﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني المشركين في نقضهم العهود واستبدلوا بالقرآن الدنيا، ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ أي: أعرضوا ومنعوا عن سبيل من الصد ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ﴾ ليس هذا تكراراً ولكن الأول لجميع المشركين والثاني لليهود خاصة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون الحلال إلى الحرام بنقض العهد ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام فإخوانكم في الدين ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ خصهم

لأنهم هم المنتفعون بها ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ نقضوا العهود ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ بالاستنقاض والحرب وغير ذلك مما يفعله المشرك، واستدل العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين إذ هو كافر، والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ صناديد قريش، وقتال كل من كان رأساً للكفر ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ لا عهود لهم، أي: ليست لهم عهود صادقة يوفون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ عن الشرك وعن كفرهم وباطلهم وأذيتهم للمسلمين، وذلك يقتضي أن يكون الغرض من قتالهم دفع ضررهم لينتهوا عن مقاتلتنا ويدخلوا في ديننا ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ توبيخ ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ أخرجوا الرسول ﷺ من المدينة لقتال أهل مكة للنكث الذي كان منهم ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ بالقتال ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي نقضوا العهد وأعانوا بني بكر على خزاعة، وقيل: بدؤوكم بالقتال يوم بدر، ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ تخافوا عقابه في ترك قتالهم من أن تخافوا أن ينالكم في قتالهم مكروه ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ أمر ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ جوابه، والتقدير: إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ دليل على أن غيظهم كان قد اشتد ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ منهم مثل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسليم بن أبي عمرو فإنهم أسلموا، والمعنى أيضاً إذا قاتلتموهم يتوب الله عليكم، وقد تكون التوبة بغير قتال لمن شاء الله أن يتوب عليه في كل حال[1].

وتستمر الآيات في وجوب البراء من الكفار والمشركين المحاربين لدين الله بأقوالهم وأفعالهم ظناً منهم أنه بمقدورهم أن يطفئوا نور الإسلام لكنهم من

(١) راجع تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٨/ ٦١ - ٨٨.

فرط جهلهم لا يعلمون أن هذا الدين لا يحارَب، وأن الله متم هذا النور هداية للخلق، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: ٦١/٨-٩].

يريد هؤلاء القائلون لمحمد ﷺ ساحر ليبطلوا الحق الذي جاء به بقولهم ساحر وما جاء به سحر، والله معلن الحق، ومظهر دينه وناصر رسوله على من عاداه، فذلك إتمام نوره ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: على كل دين سواه، فلا يكون دين غير الإسلام فما بقي من الأديان إلا وهو مقلوب مقهور بدين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لما فيه من محض التوحيد وإبطال الشرك[1].

قد أوجب الله سبحانه وتعالى معاداة المشركين، وحرم موالاتهم، وشدد فيها في آية ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من التبرؤ من الكفار والمشركين ووجوب توحيد الله سبحانه وتعالى بالتبرؤ من أعدائه من الكفار والمشركين كما أمر الحق تبارك وتعالى بذلك.

إن البراء من الكفار والمشركين يعد من ثوابت الإيمان العملية التي يثبت بها العبد المؤمن صدق إيمانه بالله سبحانه وتعالى، وذلك بالامتثال لأمر الله عملياً بمقاطعة أعداء الله من الكفار والمشركين ومعاداتهم.

إن وجوب البراء من جميع أعداء الله سبحانه وتعالى من أوثق عرى الإيمان، ومن تمام الدين، وإقامة علم الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ لا بد من الحب في الله والبغض في الله الذي هو البراء من أعدائه، ولو اتفق الناس على طريقة واحدة لم يكن هناك تميز بين الحق والباطل ولا بين الإيمان والكفر.

---

(١) انظر محاسن التأويل للشيخ محمد جمال الدين القاسمي، طباعة دار الفكر بيروت. ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٩م، ٦/١٥١ - ١٥٢.

(٢) وجوب البراء من أهل الكتاب

ونعني بذلك البراء من اليهود والنصارى كما أمرتنا آيات القرآن الكريم بذلك يقول تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٠].

كان النبي ﷺ يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الإيمان، وألا يرى منهم المكابرة والمجاحدة والعناد، ولهذا كبر عليه أن رأى من إعراض اليهود والنصارى عن إجابة دعوته وإسرافهم في مجاهدته أشد مما رأى من مشركي العرب الذين جاء لمحو دينهم من الأرض، مع موافقتهم لأهل الكتاب في أصل دينهم ومقصده من توحيد الله ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ ما هم عليه من التقليد والأهواء والانحراف الباطل الذي غيروا به وجه الدين الواحد حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾ اجهر بقول الحق، وهو أن الهدى الصحيح هو هدى الله الذي أنزله على أنبيائه دون ما أضافه إليه اليهود والنصارى بآرائهم وأهوائهم ففرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل شيعة تكفر الأخرى وتقول: إنها ليست على شيء، فإن أردت يا محمد استرضاءهم فلن يرضوا عنك إلا أن تتبع أهواءهم ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي أضافوها على كتبهم وجعلوها أصولاً وفروعاً لدينهم ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ﴾ اليقين بالوحي الإلهي المبين لتحريفهم الكلم عن مواضعه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فإنك لم تنج ولن تصل إلى حقك بمجاراتهم على باطلهم، لأن الله لا ينصرك على ذلك، إذ لا يرضيه أن يكون اتباع الهوى طريقاً إلى الهدى، وإذا لم يكن الله هو الذي يتولى شؤونك وينصرك بمعونته فمن ذا الذي ينصرك ويتولاك من بعده، فلا بد من البراء من أهل الكتاب[١].

(١) انظر تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١/ ٤٤٤ - ٤٤٥.

ويقول الحق تبارك وتعالى في ذات المعنى في سورة آل عمران: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٩].

نهى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة المؤمنين عن محبة اليهود والنصارى، وأبان العلة في ذلك لا يحبون الله ورسوله والذين آمنوا، كما أنهم يكفرون بالقرآن ويعضون عليكم الأنامل من الغيظ إظهاراً وإبطاناً لعداوتهم لكم والتعبير بالغيظ إظهار لشدة عداوتهم للمؤمنين ﴿مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ والله عليم بما تنطوي عليه ضمائركم وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغلّ للمؤمنين وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم يا أهل الكتاب خالدون فيها لا محيد لكم عنها ولا خروج لكم منها[١].

وتطرقت سورة النساء في بعض آياتها لوجوب البراء من أهل الكتاب وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ٤٤-٤٥].

إن التعجب من سلسلة التعجيبات الكثيرة من موقف أهل الكتاب من اليهود يوجه الخطاب فيه إلى الرسول ﷺ أو إلى كل من يرى هذا الموقف العجيب المستنكر، لقد كان من شاء أن يؤتوا نصيباً من الكتاب والهداية فقد آتاهم الله التوراة على يد موسى، عليه السلام، لتكون هداية لهم من ضلالتهم، ولكنهم يدعون الهداية ويشترون الضلالة، والتعبير بالشراء

(١) التفسير المنير د وهبة الزحيلي، طباعة دار الفكر، بيروت دمشق، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ٤/ ٥٨

يقصد به النية في مبادلة الضلالة بالهدى مما يدعو للعجب والاستنكار، كما أنهم بالإضافة لذلك يريدون أن يضلوا المهتدين من المسلمين بشتى الطرق والوسائل، فهم بذلك يحاولون طمس معالم الهدى من حولهم حتى لا يكون هنالك هدى ولا مهتدون، وفي هذا تنبيه للمسلمين وتحذير من كل ألاعيب اليهود ومكرهم السيئ فهم أعداء للمسلمين، والله سبحانه وتعالى يطمئن بولايته ونصره ومن هنا فلا بد من البراء من هذه الطائفة من أهل الكتاب والتصريح بذلك، بل وإعلان عداوتهم[١].

كما أن أهل الكتاب لا يتمسكون بدين الله لذلك فهم لم يحكموا التوراة والإنجيل وما أنزل فيهما من أحكام وشرائع قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٦٨].

يقول تعالى: قل يا محمد: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الدين حتى تقيموا التوراة والإنجيل، أي: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله وتعملوا بما فيها، ومما فيها الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان بمبعثه، والاقتداء بشريعته ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ القرآن العظيم وما يزيدهم إلا طغياناً وكفراً بما أنزل الله الآيات البينات ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي فلا تحزن عليهم فهم غارقون في الكفر والطغيان[٢].

ويقول تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٨٢].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٦٧٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢/ ١١٠.

يقول ابن كثير، رحمه الله، في تفسير هذه الآية: «ما ذاك إلا لأن اليهود كفرهم كفر عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى همّوا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة، وسمّوه وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلماؤهم والرهبان جمع راهب وهو العابد، وهم الرهبان الذين في الصوامع ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع»[1].

والذي يفهم من الآية المتقدمة هم النصارى الذين آمنوا بما جاء في الإنجيل الحق دون تحريفه، لأنهم يؤمنون أن عيسى، عليه السلام، بشَّر برسالة نبينا محمد ﷺ، أما الذين يتبعون تحريف الكلم عن مواضعه فهم الذين يجب علينا أن نتبرأ منهم، لذلك يجب على المؤمن أن يتبرأ من أهل الكتاب جميعاً يهوداً ونصارى وإن اختلفت درجة عداوتهم للإسلام.

(٣) وجوب البراء من المنافقين

إن من أكثر الآيات التي تحدثت بوضوح تام عن وجوب البراء من المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، بإظهارهم الإسلام وإخفاء الكفر في دخيلتهم، آيات بينات من سورة البقرة يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١١٨/٢.

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢/٨-٢٠].

ومن الناس فريق يتردد متحيراً بين المؤمنين والكافرين، وهم المنافقون الذين يقولون بألسنتهم صدقنا بالله واليوم الآخر، وهم في باطنهم كاذبون لم يؤمنوا، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله والذين آمنوا بإظهارهم الإيمان وإضمارهم الكفر، وما يخدعون إلا أنفسهم، لأن عاقبة خداعهم تعود عليهم، ومن فرط جهلهم لا يحسون بذلك لفساد قلوبهم، في قلوبهم شك وفساد؛ فابتلوا بالمعاصي الموجبة لعقوبتهم، فزادهم الله شكّاً ولهم عقوبة موجعة بسبب كذبهم ونفاقهم، وإذا نصحوا ليكفوا عن الإفساد في الأرض بالكفر والمعاصي وإفشاء أسرار المؤمنين وموالاة الكافرين، قالوا كذباً وجدالاً: إنما نحن أهل الإصلاح، إن هذا الذي يفعلونه ويزعمون أنه

إصلاح هو عين الفساد، ولكنهم بسبب جهلهم وعنادهم لا يحسون، وإذا قيل للمنافقين: آمنوا - مثل إيمان الصحابة - جادلوا وقالوا: أنصدق مثل تصديق ضعاف العقل والرأي، فنكون نحن وهم في السفه سواء؟ فردَّ الله عليهم بأن السفه مقصور عليهم، وهم لا يعلمون ما فيه من الضلال والخسران، هؤلاء المنافقون إذا قابلوا المؤمنين قالوا: صدقنا بالإسلام مثلكم، وإذا انصرفوا وذهبوا إلى زعمائهم الكفرة المتمردين على الله أكدوا لهم أنهم على ملة الكفر لم يتركوها، وإنما يستخفون بالمؤمنين ويسخرون منهم، الله يستهزئ بهم ويمهلهم، ليزدادوا ضلالاً وحيرة وتردداً ويجازيهم على استهزائهم بالمؤمنين، أولئك المنافقون باعوا أنفسهم في صفقة خاسرة، فأخذوا الكفر وتركوا الإيمان فما كسبوا شيئاً، بل خسروا الهداية وهذا هو الخسران المبين، إن حال المنافقين الذين آمنوا ظاهراً لا باطناً برسالة محمد ﷺ، ثم كفروا فصاروا يتخبطون في ظلمات ضلالهم وهم لا يشعرون، ولا أمل لهم في الخروج منها، تشبه حال جماعة نزلوا بصحراء في ليلة مظلمة، وأوقد أحدهم ناراً عظيمة للدفء والإضاءة، فلما سطعت النار وأنارت ما حوله، انطفأت وأعتمت، فصار أصحابها في ظلمات لا يرون شيئاً ولا يهتدون إلى طريق ولا مخرج، هم صمّ عن سماع الحق سماع تدبر، بكم عن النطق به، عمي عن إبصار نور الهداية، كذلك لا يستطيعون الرجوع إلى الإيمان الذي تركوه واستعاضوا عنه بالضلال، أو تشبه حال فريق آخر من المنافقين يظهر لهم الحق تارة، ويشكون فيه تارة أخرى، حال جماعة يمشون في العراء، فينصب عليهم مطر شديد، يصاحبه ظلمات بعضها فوق بعض، مع قصف الرعد، ولمعان البرق، والصواعق المحرقة التي تجعلهم من شدة الهول يضعون أصابعهم في آذانهم، خوفاً من الهلاك والله تعالى محيط بالمنافقين والكافرين لا يفوتونه ولا يسبقونه، يقارب البرق من شدة لمعانه أن يسلب أبصارهم، ومع ذلك فكلما أضاء لهم مشوا في ضوئه، وإذا ذهب أظلم الطريق عليهم فيقفون في أماكنهم، ولولا إمهال الله لهم

لسلب سمعهم وأبصارهم، وهو قادر على ذلك في كل وقت إنه على كل شيء قدير(١).

وتضيف آيات كريمات من سورة التوبة تحدثت عن المنافقين معاني أخرى في هذا السياق من وجوب مجاهدة الكفار والمنافقين الثابتين على النفاق يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٧٣].

وفي موضع آخر من السورة يقول سبحانه: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٨٣].

ثم يزيد في ذكر أوصافهم وسلوكهم السيئ بقوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٩٤-٩٦].

الآيات المتقدمة تهديد للمنافقين وإنذار لهم بالجهاد كالكفار المجاهرين إذا استرسلوا بهذه الجراءة في إظهار ما ينافي الإيمان والإسلام، من الأقوال والأفعال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ وتدخل فيه أمته من بعده قيل: المراد جاهد بالمؤمنين الكفار، وقال ابن عباس: أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ومع المنافقين باللسان وشدة الزجر

---

(١) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٨هـ، ص ٣ - ٤.

والتغليظ ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ عاملهم بالغلظة والشدة الموافقة لسوء حالهم ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الفريقين الكفار والمنافقين ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: المنافقين وإنما قال: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ﴾ لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين، بل كانوا معذورين وصار لا عذر لهم كالثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا﴾ أي: عاتبهم بألا تصحبهم أبداً ﴿ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين، قال ابن عباس: ﴿ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ من تخلف من المنافقين، ومع النساء والضعفاء، وهذا يدل على أن استصحاب المخذل في الغزوات لا يجوز ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ هذه الآية نزلت في زعيم المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول وصلاة النبي ﷺ، والمعنى أن الآية نص في الامتناع من الصلاة على الكفار ﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾ كان رسول الله ﷺ إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له بالتثبيت فنهى الله سبحانه وتعالى من الوقوف على قبور الكفار والمنافقين ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ﴾ يعني المنافقين ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ أي: لن نصدقكم ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ أي: أخبرنا بسرائركم ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ فيما تستأنفون ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي يجازيكم بعملكم ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: من تبوك، والمحلوف عليه محذوف، أي: يحلفون أنهم ما قدروا على الخروج ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾ أي عملهم رجس أي عملهم قبيح ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي: منزلهم ومكانهم نار جهنم خالدين فيها أبداً إنها بئس المثوى وبئس المصير ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾ أبانت الآية حلف عبد الله بن أبي ألا يتخلف عن رسول الله ﷺ بعد ذلك وطلب أن يرضى عنه[١].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٨/ ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٣٠، ٢٣١.

لقد نبَّه القرآن الكريم على عداوة المنافقين في عدة مواضع[1] في أكثر من اثنتي عشرة آية في سورة البقرة، وذلك لكثرتهم ولعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً، لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب، يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد، هدموا معاقل الإسلام في أكثر من بلد، وأوضعوا لواء الحق في أكثر من اتجاه، واتفقوا على مفارقة الوحي، وتنادوا بالعلمانية وعدم الاحتكام للشريعة الإسلامية في أكثر من قطر، ولخطرهم الداهم أنزل الله فيهم سورة كاملة في القرآن هي سورة «المنافقون».

(٤) وجوب البراء من المحادين لله ورسوله ولو كانوا ذوي قربى

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٢٣-٢٤].

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ

(١) يمكن أن تراجع خطر المنافقين على الإسلام في كتاب الولاء والبراء للقحطاني، ص ١٢٩ وما بعدها.

﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها وجمعتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: فانتظروا فإذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الفسق هو الخروج من سلامة الفطرة إلى فساد الطباع، ومن نور العقل إلى ظلمة الجهل والتقليد، فالفاسقين هم الخارجين من حدود الدين والشريعة المحادين لله ورسوله بارتكاب الكبائر خارجين عن الملة بالكفر[١].

وتستمر الآيات القرآنية في الحديث عن البراء من المحادين لله ورسوله ولو كانوا من ذوي القربى، يقول تعالى في خواتيم سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢٢].

لا تجد يا محمد قوماً يصدقون بالله واليوم الآخر، ويعملون بما شرع الله لهم، يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وخالف أمرهما، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم، أولئك الموالون في الله والمعادون فيه كتب في قلوبهم الإيمان وقواهم بنصر منه وتأييد على عدوهم في الدنيا ويدخلهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار، ماكثين فيها زماناً ممتداً لا ينقطع، أحل الله عليهم رضوانه فلا يسخط

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢/ ٤٥١، ٤٥٢، والتفسير المنير، ١٠/ ٣٦.

عليهم، ورضوا عن ربهم بما أعطاهم من الكرامات ورفيع الدرجات، أولئك حزب الله وأولياؤه، أولئك هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة[١].

إن البراء من الكفار وما هم عليه يقتضي أن ننبه إلى جملة أمور حتى تتم مجانبة دين الكفر والبراء منهم، وتتلخص هذه الأمور فيما يلي[٢]:

(أ) ترك اتباع أهوائهم ومتابعتهم في أي أمر من أمورهم، فإن هذه المتابعة لهم إنما تكون بترك الشريعة أو بعضها.

(ب) النهي عن التلقي عن الكفار في الرأي والمشورة وطاعتهم فيما قد يشيرون به أو يأمرون، فإن الله تعالى نهى عن طاعة الكافرين.

(ج) ترك الركون إلى الكفرة والظالمين، لأن الله تعالى نهى عن ذلك.

(د) ترك موادة أعداء الله ومحبتهم، ومفاصلتهم مفاصلة كاملة، حتى ولو كانوا من أقرب الناس نسباً وقرابة، فلا يجتمع في قلب مؤمن إيمان ومودة لأعدائه.

(هـ) ترك التشبه بهم في أفعالهم الظاهرة فيما هو من خصائصهم، لأنها تورث نوعاً من المودة والمحبة والموالاة في الباطن، وهذا التحذير تواترت به أيضاً نصوص السنة النبوية الصريحة محذرة تحذيراً شديداً من التشبه بالكفار.

ويجدر بنا هنا أن نذكر أن لشيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، كتاب كامل خصصه لهذا الموضوع وهو (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) فيه دراسة موسعة للتشبه بالكفار وأثره في الأمة وطبع محققاً في رسالة علمية للدكتور ناصر عبد الكريم العقل.

---

(١) التفسير الميسر، ص ٥٤٥.

(٢) راجع كتاب مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لعثمان جمعة ضميرية، ط مكتبة السوادي جدة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص ٣٦٧٢.

المبحث الخامس

صور من التولي المنهي عنه في القرآن الكريم

أبانت آيات القرآن الكريم صوراً عديدة ومختلفة من موالاة الكافرين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب اليهود والنصارى المحادين لله ورسوله، حتى يبتعد المؤمن عن موالاتهم من خلال تلك الصور الحية في كل آية تكلمت على موضوع صور موالاتهم، ويمكن أن نشمل الحديث عنها في الصور التالية:

الصورة الأولى: محبتهم ومودتهم

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢٢].

وقد سبق تفسير هذه الآية في المبحث السابق، وفي ذلك كفاية، فالآية صريحة في النهي عن موالاة الكافرين، ولو كانوا من أقرب الناس للمؤمن مودة وقربى، ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١].

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، لا تتخذوا عدوي وعدوكم خلصاء وأحباء تفضون إليهم بالمودة فتخبرونهم بأخبار الرسول ﷺ وسرائر المسلمين، وهم قد كفروا بما جاءكم من الحق من الإيمان بالله ورسوله وما نزل عليه من القرآن، يخرجون الرسول ويخرجونكم - أيها المؤمنون - من مكة لأنكم تصدقون بالله ربكم وتوحدونه، إن كنتم أيها المؤمنون هاجرتم مجاهدين في سبيلي طالبين مرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، تفضون إليهم بالمودة سراً، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أظهرتم، ومن يفعل ذلك منكم فقد أخطأ طريق الحق والصواب وضل عن قصد السبيل(١).

والآية وإن نزلت في بعض الصحابة إلا أن حكمها عام، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يجتمع الإيمان ومحبة الكافرين ومودتهم في قلب واحد، لذا فإنه يجب علينا أن نتجنب محبتهم ومودتهم.

الصورة الثانية: اتخاذهم أنصاراً وأعواناً

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٨].

ينهى الله المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء بالمحبة والنصرة من دون المؤمنين، ومن يتولهم فقد برئ من الله ورسوله، والله بريء منه، إلا أن تكونوا ضعافاً خائفين، فقد رخص الله لكم في مهادنتهم اتقاء لشرهم، حتى تقوى شوكتكم، ويحذركم الله نفسه، فاتقوه وخافوه وإلى الله وحده رجوع الخلائق للحساب والجزاء(٢).

---

(١) التفسير الميسر، ص ٥٤٩.

(٢) راجع جامع البيان للطبري ٣/ ٤٤.

ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥١].

ويقول تعالى في ذات السورة المائدة: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٨١].

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، قاتلهم الله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم توعد وتهدد من يتعاطى ذلك فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ ولو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبوا من موالاة الكافرين في الباطن ومعاداة المؤمنين بالله والنبي ﷺ وما أنزل إليه من الآيات البينات، ولا اتخذوهم أولياء، ولكن الكثيرين ممن يفعلون ذلك، يوالون اليهود والنصارى أعداء الله ويتخذونهم أعواناً وأنصاراً فإنهم فاسقون مخالفون لأمر الله سبحانه وتعالى، فلو كان أولئك اليهود الذين يناصرون المشركين مؤمنين بالله ورسوله والقرآن ما اتخذوا الكفار أصحاباً وأنصاراً، ولكنهم فعلوا تلك الموالاة لأنهم خارجون عن طاعة الله ورسوله[1].

الصورة الثالثة: الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر أو التحاكم إليه

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٢١.

كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٠١-١٠٢].

جاء في المصحف الميسر في تفسير هاتين الآيتين:

ولما جاءهم محمد رسول الله ﷺ بالقرآن الموافق لما معهم من التوراة طرح فريق منهم كتاب الله، وجعلوه وراء ظهورهم، شأنهم شأن الجهال الذين لا يعلمون حقيقته، واتبع اليهود ما تحدث الشياطين به السحرة على عهد ملك سليمان بن داوود، وما كفر سليمان وما تعلم السحر، ولكن الشياطين هم الذين كفروا بالله حين علموا الناس السحر، إفساداً لدينهم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين هاروت وماروت بأرض بابل في العراق، امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده، وما يعلم الملكان أحداً حتى ينصحاه ويحذراه من تعلم السحر، ويقولا له: لا تكفر بتعلم السحر وطاعة الشياطين، فيتعلم الناس من الملكين ما يحدثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرقا، ولا يستطيع السحرة أن يضروا به أحداً إلا بإذن الله وقضائه، وما يتعلم السحرة إلا شراً يضرهم ولا ينفعهم، وقد نقلته الشياطين إلى اليهود فشاع فيهم حتى فضلوه على كتاب الله، ولقد علم اليهود أن من اختار السحر وترك الحق ما له في الآخرة من نصيب في الخير، ولبئس ما باعوا به أنفسهم من السحر والكفر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول، لو كان لهم علم بما وعظوا به[1].

---

(١) المصحف الميسر، مجمع الملك فهد، ص ١٥ - ١٦.

فلا يجوز الإيمان بما هم عليه من السحر والباطل ولا التحاكم إلى ما يتحاكمون إليه من الهوى والضلال.

ويقول تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٤/٥١].

ألم تعلم يا محمد أمر أولئك اليهود الذين أعطوا حظاً من العلم يصدقون بكل ما يُعبد من دون الله من الأصنام وشياطين الإنس والجن؟ ويقولون للذين كفروا بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ: هؤلاء الكافرون أقوم وأعدل طريقاً من أولئك الذين آمنوا»[1].

الصورة الرابعة: الركون إليهم

قال تعالى في سورة هود عليه السلام: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١/١١٣].

لا تداهنوهم بالركون إلى الشرك، ولا ترضوا بأعمالهم، ولا تميلوا إلى الذين ظلموا، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ وليس لكم من الله تعالى ولي ينقذكم ولا ناصر يخلصكم من عذابه[2].

فلذلك لا بد من عدم الركون إلى الكافرين وأتباعهم، فهذه الصورة من موالاة الكافرين تقود المؤمن إذا استمر عليها إلى النار، فيخرج من رحمة الله ولا يجد له ناصراً من دون الله تعالى.

---

(١) المصحف الميسر مجموعة من العلماء، مجمع الملك فهد، ص ٨٦.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢/٦٠٦.

إن الركون إلى الكافرين جريمة ما بعدها جريمة في حق الإسلام والمسلمين؛ لأن الذي يركن إليهم يشكل ثغرة كبيرة على وحدة المسلمين.

ويقول تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٤-٧٥].

ولولا أن ثبتناك على الحق، وعصمناك من موافقتهم لقاربت أن تميل إليهم ميلاً قليلاً من كثرة المعالجة ورغبتك في هدايتهم، ولو ركنت يا محمد إلى هؤلاء المشركين ركوناً قليلاً فيما سألوك لأذقناك مثلي عذاب الحياة في الدنيا، ومثلي عذاب الممات في الآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك وكمال معرفتك، ثم لا تجد أحداً ينصرك ويدفع عنك عذابنا[١].

وإذا كان هذا هو توجيه الحق تبارك وتعالى لنبيه المعصوم محمد ﷺ فما بال أتباعه إذا ركنوا إلى أعداء الله من الكفار وأهل الكتاب والمحادين لله ورسوله فالنهي أكبر والبعد عن الركون إليهم أعم وألزم.

الصورة الخامسة: اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين

وفي هذا المعنى يقول الحق تبارك وتعالى في سورة آل عمران:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٨].

يا أيها الذين آمنوا صدقوا الله واتبعوا رسوله لا تتخذوا الكافرين أولياء

---

(١) التفسير الميسر نخبة من العلماء مجمع الملك فهد، ص ٢٨٩.

من دون المؤمنين، تطلعونهم على أسراركم، فهؤلاء لا يفترون عن إفساد حالكم، وهم يفرحون بما يصيبكم من ضرر ومكروه، وقد ظهرت شدة البغض في كلامهم، وما تخفي صدورهم من العداوة أكبر وأعظم، قد بيّنا لكم البراهين والحجج لتتعظوا وتحذروا إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه.

فالآية صريحة في النهي عن اتخاذ الكافرين بطانة وأولياء من دون المؤمنين فلا مودة ولا محبة مع الكفر بكل أشكاله.

الصورة السادسة: طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون

ويجب مخالفة الكفار وعدم طاعتهم وعدم الأخذ بمشورتهم لأنهم أعداء لله ولرسوله وللمؤمنين، فلا يعقل أن يمتثل الإنسان المؤمن أمرهم أو يعمل بمشورتهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٩].

يا أيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله واتبعوه إن تطيعوا الذين جحدوا ألوهيتي ولم يؤمنوا برسلي من اليهود والنصارى والمنافقين والمشركين فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه، يضلوكم عن طريق الحق، وترتدوا عن دينكم، فتعودوا بالخسران المبين والهلاك المحقق[1].

ويقول تعالى في سورة الأنعام:

﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢١].

---

(١) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، مجمع الملك فهد، ص ٦٩.

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله، فالنهي عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان وينهى عن ذبائح المجوس، وتحدثت الآية عن وحي الشيطان لأوليائه ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ إن المشركين قالوا للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله، فما قتل الله فلا تأكلونه، وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟ فقال الله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ﴾ فأكلتم الميتة ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾[1] حيث عدلتم عن أمر الله وشرعه إلى قول غيره، فقدّمتم عليه غيره فهذا هو الشرك.

ويقول الله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ۝٢٨﴾ [الكهف: ١٨/٢٨].

يقول تعالى: واصبر نفسك يا محمد مع أصحابك من فقراء المؤمنين الذين يعبدون ربهم وحده، ويدعونه في الصباح والمساء يريدون بذلك وجهه، واجلس معهم وخالطهم، ولا تصرف نظرك عنهم إلى غيرهم من الكفار لإرادة التمتع بزينة الحياة الدنيا، ولا تطع من جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا، وآثر هواه على طاعة مولاه، وصار أمره في جميع أعماله ضياعاً وهلاكاً[2].

فالآيات المتقدمة واضحة كل الوضوح في النهي عن طاعة الكافرين فيما يأمرون ويشيرون.

(١) باختصار من تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢/٢٢٧ وما بعدها.

(٢) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، نخبة من العلماء، ص ٢٩٧.

الصورة السابعة: التشبه بهم

التشبه بالكفار يكون في التشبه بهم في أكلهم، في لبسهم الخليع، في طريقة حلق شعرهم، في أعيادهم واحتفالاتهم، لذلك نهى القرآن الكريم عن ذلك حتى يكون الفارق واضحاً بين الكفر والإيمان قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٠].

الآية واضحة في نهيها عن اتباع أهواء المشركين، لأن الذي يتبع هؤلاء الكافرين يتشبه بهم ويكون مثلهم.

ويقول تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٥].

ويقول تعالى في السورة الكريمة نفسها: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٠].

ولئن جئت يا محمد الذين أعطوا التوراة والإنجيل بكل حجة وبرهان على أن توجهك للكعبة في الصلاة هو الحق من عند الله، ما تبعوا قبلتك عناداً واستكباراً، وما أنت بتابع قبلتهم مرة أخرى، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، ولئن اتبعت أهواءهم في شأن القبلة وغيرها بعدما جاءك من العلم بأنك على الحق وهم على الباطل، إنك حينئذٍ لمن الظالمين لنفسهم، وفي هذا تهديد ووعيد لمن يتبع المخالفين لشريعة الإسلام. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ

خَرَجْتَ﴾ الآية، ومن أي مكان خرجت يا محمد فتوجه إلى المسجد الحرام وحيث ما كنتم أيها المسلمون بأي قطر من أقطار الأرض، فولّوا وجوهكم نحو المسجد الحرام، لكي لا يكون للناس المخالفين لكم احتجاج عليكم بالمخاصمة والمجادلة، بعد هذا التوجه إليه، إلا أهل الظلم والعناد منهم فسيظلون على عنادهم وجدالهم فلا تخافوهم وخافوني بامتثال أمري واجتناب نهيي، ولكي أتم نعمتي عليكم باختيار أكمل الشرائع لكم ولعلكم تهتدون إلى الحق والصواب(١).

ويقول سبحانه وتعالى في سورة يونس عليه السلام: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٨٩].

يقول ابن كثير، رحمه الله، في تفسير هذه الآية: قد أجاب الله دعوة موسى وتأمين أخيه هارون في تدمير آل فرعون، أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما، فامضيا لأمري، وهي الاستقامة، ولا تتبعوا سبيل الكافرين، فلا تأتمروا بأمرهم وتتبعوهم في الضلال وفيما يشيرون إليه من سيئ الأعمال حتى لا يتشبه المسلم بهم(٢).

ويقول تعالى في سورة الجاثية: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/ ١٨-١٩].

ثم جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين فاتبع الشريعة التي جعلناك عليها، ولا تتبع أهواء الجاهلين بشرع الله الذين لا يعلمون الحق،

(١) انظر التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) بتصرف من تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢/ ٥٦٤ - ٥٦٥.

وفي الآية دلالة عظيمة على كمال هذا الدين وشرفه، ووجوب الانقياد لحكمه، وعدم الميل إلى أهواء الكفرة والملحدين، إن هؤلاء المشركين بربهم الذين يدعونكم إلى اتباع أهوائهم لن يغنوا عنك يا محمد من عقاب الله شيئاً إن اتبعت أهواءهم، وإن الظالمين المجاوزين حدود الله من المنافقين واليهود وغيرهم بعضهم أنصار بعض على المؤمنين بالله وأهل طاعته، والله ناصر المتقين بأداء فرائضه واجتناب نواهيه[1].

وهناك صور أخرى كثيرة غير الصور التي ذكرناها يمكن أن نجملها فيما يأتي:

(٨) استئمانهم وقد خونهم الله قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٥].

(٩) الرضا بأعمالهم والتزيي بزيهم.

(١٠) البشاشة لهم والطلاقة وانشراح الصدر لهم وإكرامهم وتقريبهم.

(١١) معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم «ومن ذلك فعل امرأة لوط وامرأة نوح».

(١٢) مناصحتهم والثناء عليهم ونشر فضائلهم، وهذه الصور كثيرة في عصرنا الحاضر.

(١٣) تعظيمهم وإطلاق الألقاب عليهم «كالسادة والحكماء والزعماء».

(١٤) السكنى في ديارهم وتكثير سوادهم.

(١٥) التآمر معهم وتنفيذ مخططاتهم وتنظيماتهم خاصة الأحزاب الإلحادية[2].

---

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص ٥٠٠.

(٢) انظر الولاء والبراء للشيخ محمد القحطاني، ص ٢٤٤ وما بعدها.

المبحث السادس

الفرق بين الموالاة والمعاملة بالحسنى

المعاملة بالحسنى

قال تعالى في سورة النساء: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٤/٣٦].

واعبدوا الله وانقادوا له وحده، ولا تجعلوا له شريكاً في الربوبية والعبادة، وأحسنوا إلى الوالدين، وأدّوا حقوقهم وحقوق الأقربين واليتامى والمحتاجين، والجار القريب منكم والبعيد والرفيق في السفر وفي الحضر، والمسافر المحتاج والمماليك من فتيانكم وفتياتكم، إن الله تعالى لا يحب المتكبرين من عباده المفتخرين على الناس(١).

وقال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ٣١/١٥].

وإن جاهدك أيها الولد المؤمن والداك على أن تشرك بي غيري في عبادتك إياي مما ليس لك به علم، أو أمراك بمعصية من معاصي الله فلا تطعهما، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وصاحبهما في الدنيا بالمعروف فيما لا إثم فيه، واسلك أيها الابن المؤمن طريق من تاب من ذنبه ورجع إليَّ

---

(١) التفسير الميسر، ص ٨٤.

وآمن برسولي محمد ﷺ، ثم إليّ مرجعكم فأخبركم بما كنتم تعملونه في الدنيا، وأجازي كل عامل بعمله[١].

صور المعاملة الجائزة

من صور المعاملة الجائزة ما جاء واضحاً في سورة الممتحنة ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨].

لا ينهاكم الله أيها المؤمنون عن الذين لم يقاتلوكم من الكفار بسبب الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تكرموهم بالخير وتعدلوا فيهم بإحسانكم إليهم، وبركم بهم، إن الله يحب الذين يعدلون في أقوالهم وأفعالهم[٢].

ومن خلال دراستنا في الولاء والبراء في القرآن الكريم فإننا نخلص إلى التوجيهات التالية:

أولاً: تعميق قضية ولاء المسلم للمسلم وانتمائه لإخوانه المؤمنين فقط، وخلع الولاءات الجاهلية من قومية وعرقية ووطنية وعالمية وغيرها، فالمسلم أخو المسلم في أي مكان من الأرض.

ثانياً: تعميق قضية المعاداة والبراءة من أعداء الله الكفار منهم والمشركين والمنافقين والمرتدين، وإنه لا يجتمع إيمان في قلب مع حب الكفر وأهله.

ثالثاً: التأكيد على قضية عداوة أولياء الشيطان لأولياء الرحمن، فإن هذه العداوة قائمة منذ آدم، عليه السلام، إلى قيام الساعة، فالحزبان لا يلتقيان أبداً، لأن حزب الله يريد دعوة الناس إلى عبادة الله، وحزب الشيطان

---

(١) التفسير الميسر، ص ٤١٢.

(٢) انظر التفسير الميسر، ص ٥٥٠.

يدعو الناس إلى عبادة الطاغوت وطاعته، وقتال المؤمنين لصدهم عن دينهم، فقاتلوا أولياء الشيطان، إنهم لا أيمان لهم وهم في الخسران لا محالة في ذلك، وحزب الله هم المفلحون جعلنا الله منهم.

رابعاً: صد آثار الغزو الفكري الذي يدعو إلى التشبه بالكافرين، وذلك بتعرية الجاهلية الحديثة، وتمزيق زيفها وبهرجتها، فنبين انحرافها مع إيجاد البديل الإسلامي الصحيح[١].

خامساً: لتحقق عقيدة الولاء والبراء لا بد من تربية أجيال الأمة المسلمة على منهاج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لأن هذا هو الطريق الصحيح الذي به ترجع الأمة إلى ربها ودينها.

سادساً: بعث الأمل في النفوس وتقويته بقرب نصر الله على اليهود ألد أعداء الإسلام والمسلمين مصداقاً لقول الرسول ﷺ: «لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي فتعال فاقتله»[٢].

---

(١) راجع الولاء والبراء للقحطاني، ص ٤٣٦.

(٢) صحيح مسلم كتاب أشراط الساعة، ٢٢٣٨/٤، حديث رقم ٢٩٢١.

المحاضرة الرابعة

منهج إبراهيم، عليه السلام، في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم

تمهيد: نشأة إبراهيم عليه السلام

نسبه: هو إبراهيم خليل الله بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عامر بن شالح بن أرفكشان بن سام بن نوح عليه السلام.

هذا هو النسب في التوراة وبعض كتب التاريخ، وقد جاء في القرآن أن اسم أبيه «آزر» واختلف المفسرون في اسم أبيه فقيل: إن «آزر» صفة، وقيل: اسم إله من آلهتهم، وقد كانت الأمم السالفة يقلد بعضهم بعضاً في أسماء الآلهة[1].

نشأته: نشأ إبراهيم، عليه السلام، قبل الميلاد بنحو ألف وست مئة عام، أي: قبل أربعة آلاف عام، وقد حدد المسعودي الفترة الممتدة بين عهد إبراهيم عليه السلام وبين عهد موسى عليه السلام بخمس مئة وسبع وستين سنة[2].

وقد عين زمن إبراهيم، عليه السلام، في القرن التاسع عشر قبل الميلاد،

(١) انظر قصص الأنبياء، الشيخ عبد الوهاب النجار، ص ٩٣.

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودي، طباعة مصر ١٩٣٨م، ص ٧١.

ويتفق المؤرخون على أن مولد إبراهيم الخليل كان في العراق وإن اختلفوا في تحديد المدينة التي ولد فيها، وأنه قد عاش في عهد الملك نمرود الذي حاج إبراهيم في ربّه(١).

وقد ظهر إبراهيم، عليه السلام، على مفترق من الطرق يختلف فيه الناس في العبادة والاعتقاد، وكان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام والكواكب، فنشأ فيهم موحداً لله سبحانه وتعالى بفطرته السليمة.

المبحث الأول

صفات إبراهيم، عليه السلام، وأثرها في الدعوة

إن من أهم الصفات التي اتصف بها إبراهيم، عليه السلام، أنه كان أمّة، قانتاً، حنيفاً، شاكراً لنعم ربه، أوّاهاً، حليماً. وسنتناول هذه الصفات كما جاءت في القرآن الكريم:

يقول تعالى في سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١١٤].

ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ أي: إن إبراهيم، عليه السلام، كان كثير الدعاء حليماً عمن ظلمه وأناله مكروهاً، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه، فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر(٢).

وقوله تعالى في سورة هود عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ١١/ ٧٤-٧٥].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري، ١/ ١٦٢.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤/ ٢٢٧.

ففي هذه الآية مدح لبعض الصفات الحميدة التي اتصف بها خليل الله إبراهيم، عليه السلام، من الحلم وهو العفو عند المقدرة والتأوه وهو الدعاء والإنابة والرجوع إلى الله تعالى بالاستغفار.

ويقول تعالى في سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٤١].

إن إبراهيم بليغ التصديق بما يجب لله من الوحدانية والتنزيه، ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل في تبليغ دعوة الحق إلى قومه[١].

وفي سورة الذاريات يقول تعالى في وصف إبراهيم، عليه السلام، بالسخاء والكرم: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٢٤-٢٧].

في هذه الآية وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل، وفيه أيضاً وجوب ردّ التحية ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ يعني انسل خفية في سرعة ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ من خيار ماله وشواه وقربه إليهم قائلاً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تلطف في العبارة وعرض حسن، ففي هذه الآية إشارة إلى وصف إبراهيم بالسخاء والكرم وآداب الضيافة[٢].

وجاء في سورة النساء وصف إبراهيم، عليه السلام، بالخليل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢٥].

---

(١) باختصار من تفسير محاسن التأويل للقاسمي، ١١/ ١٢٨.

(٢) باختصار من تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٧/ ٤٢٠.

فضل الله دين الإسلام على سائر الأديان ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ معناه أخلص دينه لله وخضع له وتوجه إليه بالعبادة ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: موحد والملة: الدين والحنيف: المسلم، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ ومعنى الخليل الذي ليس في محبته خلل وهو خليل الله، لأنه أحبه واصطفاه، والخليل هو الذي يوالي في الله ويعادي في الله، والإخلاء بين الآدميين الأصدقاء(١).

ومن جملة ما اتصف به إبراهيم، عليه السلام، الرفق مع أبيه، بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٤٢-٤٥].

وقوله تعالى في ذات السورة مريم: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٤٧].

لقد طلب إبراهيم، عليه السلام، من أبيه بأدب وحسن خلق ألا يعبد الأصنام الصماء التي لا تسمع والتي لا تبصر والتي لا تضر ولا تنفع والتي لا تغني الإنسان عن الله سبحانه وتعالى خالقه شيئاً، وطلب من أبيه أن يتبعه حتى يهديه إلى الصراط المعتدل، لقد أرشد أباه إلى الحق بالرفق واللطف، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، وطلب من أبيه أن يتبعه حتى ينجيه من الضلال، ثم نهى أباه عن عبادة الشيطان العاصي لله ربه ولا ريب أن المطيع للعاصي عاص، وذكر الرحمن لإظهار كمال شناعة معصية الشيطان لله، ووجه أباه وخوفه من سوء العاقبة، وبما

---

(١) باختصار من الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٥/ ٤٠٠ وما بعدها.

يجره له الشيطان وبالاً، ولم يخل ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العذاب لاحق بأبيه ولكنه قال: ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ فذكر الخوف والمس وذكر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ يقابل السيئة بالحسنة فلن أجيبك بمكروه ولكن سأدعو ربي أن يغفر لك[1].

ومن صفات إبراهيم، عليه السلام، الصبر وتحمل الأذى في سبيل دعوته ودينه، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٦٨].

قالوا: حرقوه، لأنه استحق أشد العذاب عندهم، والنار أهول ما يعاقب به، وانصروا آلهتكم بالانتقام لها ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ به شيئاً فلا يليق به إلا الإحراق.

ومن أبرز صفات إبراهيم، عليه السلام، توكله التام على الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٧٨-٨٠].

يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ هو الخالق الذي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر، وهو الذي يهدي من يشاء ويقبل من يشاء ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ أسند المرض إلى نفسه، وإن كان من قدر الله وقضائه وخلقه، ولكنه أضافه

---

(١) باختصار من تفسير محاسن التأويل للقاسمي، ١١/ ١٣٢.

إلى نفسه أدباً، فإذا وقعت في مرض لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه، وفي هذا تمام التوكل على الله[١].

ومن صفات إبراهيم، عليه السلام، الشجاعة قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٥٧].

لأحتالن لفضيحة الأصنام بإظهار عجزها في عدم قدرتها في الدفاع عن نفسها بعد أن تفرغوا من عبادتها وتذهبوا بعيداً عنها وتكون بمفردها، وفي القسم إشارة إلى شجاعته.

لقد كسر إبراهيم، عليه السلام، الأصنام بكل جرأة وحطمها معرضاً نفسه للهلكة في سبيل الحق، لقد حطمها، إذ ذهب إلى أصنامهم التي يعبدون واستهزأ بها عندما خاطبها مستنكراً لها ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ من هذا الطعام الذي وضع أمامكم للتبرك، لكن الأصنام لا تنطق ولا تجيب مما جعل إبراهيم، عليه السلام، يستعلي عليهم ويضربهم بيمينه بكل قوة بالفأس التي يحملها، فيضربها بكل قوته، إن إبراهيم قد صبَّ غيظه على هذه الأصنام فهشمها تهشيماً، فتحركوا وغضبوا لأن آلهتهم قد حُطمت وكُسرت، وأصابع الاتهام كلها تشير إلى ذلك الفتى إبراهيم، لأنه عدوها وعدوهم فأمروا به أن يقبض عليه ويقدم إلى محاكمة علنية، لأنه تحدى عقيدتهم الفاسدة، وجمعوا كل الناس، الرجال، والنساء، والشيوخ، والأطفال، وفي ذات المكان الذي شهد تحطيم آلهتهم حوكم إبراهيم، الذي وقف وحده أمامهم وأمام جموعهم وسلطانهم الخاسر، فكان لا يبالي لأن الله الواحد الأحد الفرد الصمد معه، كان متوكلاً على ربه الذي يحيي ويميت ربه الشافي، الغافر للذنوب لمن تاب إليه، الطاعم الساقي الرازق

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٦/١٤٦.

مالك يوم الدين الذي يدخل برحمته وفضله يوم القيامة الصالحين من عباده إلى جنة النعيم[(١)].

وفي تلك المحاكمة الكبرى كانت إفادات إبراهيم، عليه السلام، عندما سُئل ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾؟ أشار إبراهيم إلى الصنم الأكبر الذي علق الفأس في عنقه استهزاء مبيناً لهم أن هذا الكبير هو الفاعل.

لقد علمنا أبو الأنبياء إبراهيم، عليه السلام، أن إزالة الباطل تتطلب أحياناً ثورة عملية ينتقل بها الداعية المؤمن من مرحلة القول إلى مرحلة العمل والتنفيذ، فأبانت الآيات القرآنية التي تناولت موضوع دعوة إبراهيم، عليه السلام، إنها اشتملت على جانبين هامين هما: الأسلوب القولي والأسلوب العملي، وهذا ما سنتناوله في المبحث التالي.

المبحث الثاني

أساليب إبراهيم الدعوية كما عرضها القرآن الكريم

أولاً: الأساليب النظرية

(أ) المناظرة والمحاجة

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٥٨].

هل رأيت يا محمد أعجب من حال هذا الذي جادل إبراهيم، عليه

---

(١) انظر حياة إبراهيم للأستاذ محمود شلبي، طباعة دار الجيل بيروت، ١٩٧٤م، ص ٨٠ وما بعدها.

السلام، في توحيد الله تعالى وربوبيته، لأن الله أعطاه الملك فتجبر، وسأل إبراهيم: من ربك؟ فقال إبراهيم، عليه السلام: ربي الذي يحيي الخلائق فتحيا، ويسلبها الحياة فتموت، فهو المنفرد بالإحياء والإماتة. قال: أنا أحيي وأميت، أي: أقتل من أردت قتله وأستبقي من أردت استبقاءه، فقال إبراهيم: إن الله الذي أعبده يأتي بالشمس من المشرق، فهل تستطيع تغيير هذه السنة الإلهية بأن تجعلها تأتي من المغرب؟ فتحير هذا الكافر وانقطعت حجته، شأنه شأن الظالمين لا يهديهم الله إلى الحق والصواب[١].

ويقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٤-٨٣].

---

(١) انظر التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص ٤٣.

تصور الآيات السابقة مشهد الفطرة التي تنكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها، إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم، إنه لم يهتد بوعيه وإدراكه إلى إلهه، ولكن فطرته السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة، فالإله الحق في نظر إبراهيم لا يمكن أن يكون صنماً من حجر أو وثناً من خشب ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كلمة يقولها إبراهيم لأبيه، وهو الأواه الحليم الرضي في الخلق، وهو القدوة في فهم الوحدانية لله سبحانه وتعالى، لذلك فتح الله بصيرته للأسرار الكامنة في الكون ليريه الله ملكوت السماوات والأرض، وليكون من الموقنين المؤمنين إيماناً قاطعاً لا زعزعة فيه بالله الخالق القدير، فتأمل إبراهيم، عليه السلام، في الكواكب من نجوم وشمس وقمر استكبرها لتكون آلهته في بادئ الأمر، ولكنها حينما أظهرت ضعفاً بالزوال أنكر أن تكون له آلهة من دون الله، فقد غابت جميعها عن ناظريه، فاتجه إلى فاطر السماوات والأرض وخالق تلك الكواكب وخالق كل شيء ليعبده سبحانه وتعالى دون غيره فلا إله إلا الله، فواجه قومه بيقينه الحازم وإيمانه الراسخ بالله ربه ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ فقومه لا يتفكرون ولا يتدبرون في ملكوت السماوات والأرض كما تفكر وتدبر إبراهيم، عليه السلام، واجههم وهو مستنكر لما يعبدون من دون الله في ثقة وطمأنينة، أتجادلونني في الله وقد وجدته يأخذ بيدي ويفتح بصيرتي ويهديني إليه، فما أجادلكم في أمر أجده في نفسي ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ فلا أخاف أحداً إلا الله، لأنه يعلم أن كل شيء يحدث إنما يحدث بمشيئة الله وعلمه، ولذلك فهو في حماية الله ورعايته ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فالمؤمن لا يخاف إلا الله ولكن المشرك يخشى ويخاف من كل شيء حوله، فكان من الأجدى أن يخافوا الله القوي الذي أشركوا به غيره، كما أن إبراهيم لم يكترث لخوف آلهتهم الزائفة التي لا تضر ولا تنفع ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ المؤمنون الخائفون من الله الطائعون له أم الكافرون

المشركون الجاحدون لله ونعمه؟ إن الذين آمنوا هم الأحق بالأمن من غيرهم لأنهم لم يخلطوا شريكاً في عبادة أو طاعة أو اتجاه فعبدوا الله وحده فاستحقوا الأمن والهداية، وقد كانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله إبراهيم ليدحض بها حجتهم التي جاؤوا بها يجادلونه، فلما واجههم إبراهيم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها، سقطت حجتهم، وعلت حجته، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة، وهكذا يرفع الله من يشاء درجات متصرفاً في هذا بحكمته وعلمه ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1].

(ب) المعاريض

قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٦٢-٦٣].

يقول الإمام القرطبي، رحمه الله، في تفسير هذه الآيات: «لما لم يكن السماع عاماً ولا ثبتت الشهادة استفهموه هل فعل أو لا؟ فقالوا: أأنت فعلت هذا بالآلهة؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي: إنه غار وعظم عليه أن يعبد هو ويعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك، إن كانوا ينطقون فاسألوهم، فعلق فعل الكبير بنطق الآخرين تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم، كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ بين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد، وكان قوله من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، أي: سلوهم إن نطقوا فإنهم يصدقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل، مع أن في الكلام اعترافاً بأنه هو الفاعل، وهذا هو

---

(١) باختصار من ظلال القرآن لسيد قطب، ٢/ ١١٣٧ وما بعدها.

الصحيح، لأنه عدده على نفسه فدل على أنه خرج مخرج التعريض، وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله»[١].

ويقول تعالى في سورة الصافات: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ [الصافات: ٣٧/ ٨٨-٨٩].

فنظر فيما نجم من الأشياء، فعلم أن لها خالقاً ومدبراً وأنه لا يتغير كتغيرها فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال الضحاك معناها: سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت وهذا تورية وتعريض، وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك: أشار لهم إلى مرض وسقم يعدي كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون فارين منه خوفاً من العدوى[٢].

(ج) الاستعطاف

جاءت بعض الآيات في سورة مريم توضح هذا الأسلوب الدعوي النظري في دعوة إبراهيم، عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾ [مريم: ١٩/ ٤٢-٤٥].

أرشد أباه إلى الدين المستقيم الذي فيه النجاة من عذاب الله تعالى إن مات على ما هو عليه من الكفر فيكون قريناً للشيطان في النار، وفي هذا استعطاف من إبراهيم، عليه السلام لأبيه حتى يلين قلبه ويؤمن بالله، فدعاه من باب العطف عليه من أن يلحق به عذاب الله الأليم حباً لأبيه وعطفاً عليه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١١/ ٢٦٢.

(٢) الجامع لأحكام القرن للقرطبي، ١٥/ ٨٢.

(د) استعارة الخصم

جاء بيان هذا الأسلوب في قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٥٨].

وقوله تعالى في السورة ذاتها: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٦٧].

لقد جعل إبراهيم آلهتهم فتاتاً كسرها وقطعها، وهذا معنى الجذ، فصارت كالحطام والرفات، وهذا هو الكيد الذي أقسم به ليفعلنه بها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ ترك الصنم الأكبر وعلق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه، ليحتج به عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيم ودينه ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إذا قامت الحجة عليهم ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ أي: النتن لكم والخزي والعار لما تعبدونه من دون الله من أصنام حجرية وأوثان خشبية، فتحسر على فعلهم هذا، وفي هذا استعارة وتحريك لمشاعرهم ليتيقنوا أنهم على الباطل يسيرون[(١)].

ثانياً: الأساليب العملية

(أ) القدوة

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢/١٢٤].

جعل الله لهم إبراهيم، عليه السلام، إماماً يتخذونه قدوة، ويقودهم إلى الله ويقدمهم إلى الخير ويكونون له تبعاً، وتكون له فيهم قيادة ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ جاء الرد من الله الذي اصطفاه وابتلاه وجعله قدوة: إن الإمامة لا

(١) بتصرف من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١١/ ٢٦٥.

تكون بالوراثة إنما تكون لمن يستحقها بالعمل والصلاح والإيمان ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والظلم أنواع وألوان، فمنه الشرك بالله والبغي على الناس، والإمامة والقدوة ممنوعة للظالمين، فالقدوة تكون في العقيدة الواحدة في الأمة المؤمنة[١].

ويقول تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٣].

دعا الله سبحانه وتعالى مشركي العرب بوساطة أبيهم إبراهيم، عليه السلام، إلى ملته، فقد كان أمة جامعاً للخير وللخصال الحميدة قانتاً لله يعلم الناس الخير، مطيعاً لله قانتاً له بالدعاء، مفرده بالعبودية وحده دون غيره فقد قام الدليل العملي في عبادة الله سبحانه وتعالى، ثم إن الله تعالى أمر باتباع إبراهيم، عليه السلام، في مناسك الحج، وأمر باتباعه في التبرؤ من الأوثان، وفي الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول لأن النبي ﷺ أفضل الأنبياء وقد أمر بالاقتداء بهم واتباعهم[٢].

قد كانت لكم قدوة حسنة في إبراهيم والذين اتبعوه من المؤمنين كلوط عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ يعني الذين أشركوا بالله وعبدوا الطاغوت ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟﴾ جمع بريء، من دينكم ومعبودكم، أنكرنا ما أنتم عليه من الكفر بالله وجحدنا عبادتكم، إذ لا صلح بيننا ولا مودة إلى أن تؤمنوا بالله وحده، وقد كانت لنا أسوة حسنة في إبراهيم في أمور العبادة والتوحيد والتبرؤ من الكفار والمشركين والمنافقين[٣].

---

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٥٧.

(٢) بتصرف من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١٠/ ١٧٥.

(٣) انظر محاسن التأويل للقاسمي، ١٦/ ١٢٦.

تلك المعاني العظيمة في الأسلوب العملي لإبراهيم، عليه السلام، جاءت في سورة الممتحنة قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٤].

(ب) البداءة بالأهم

قد كان من أساليب إبراهيم، عليه السلام، الدعوية ترتيب أمور الدعوة وتنظيمها بدءاً بالأهم فالأهم حتى يصل إلى الغاية المنشودة من دعوة الناس إلى دين الله، يقول تعالى في سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٥].

واذكر يا محمد حين دعا إبراهيم ربه بعد أن أسكن ابنه إسماعيل وأمه هاجر وادي مكة: رب اجعل «مكة» بلد أمن يأمن كل من فيها وأبعدني وأبنائي عن عبادة الأصنام.

ويقول تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ١٦].

واذكر يا محمد إبراهيم، عليه السلام، حين دعا قومه أن أخلصوا العبادة لله وحده، واتقوا سخطه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ذلكم خير لكم، إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم مما هو شر لكم، ونجد أن إبراهيم، عليه السلام، بدأ أولاً بالدعاء والتضرع إلى أن يكون وأبناؤه موحدين لله، يبدأ أولاً بنفسه ثم دعا قومه بعد ذلك لعبادة الله والخوف منه، فبدأ بالأهم.

(ج) البداءة بالأقربين

بدأ إبراهيم، عليه السلام، بأقرب الناس إليه مودة ورحماً وهو أبوه فدعاه لتوحيد الله ونبذ عبادة الأوثان والأصنام واتبع معه أسلوباً عملياً في نهيه ألا يعبد الشيطان، واتخذ في سبيل ذلك كل ما أوتي من علم وحكمة، فبدأ بأبيه وهو أقرب الناس إليه، وهذا أسلوب هام في الدعوة إلى الله،

لينذر الإنسان عشيرته الأقربين قبل أن يدعو الناس أجمعين، وقد جاءت هذه المعاني واضحة في سورة مريم من الآية ٤٢ وحتى الآية ٤٥ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾.

(د) اللين أولاً ثم الشدة

يقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٤].

واذكر يا محمد الطريقة التي اتخذها إبراهيم، عليه السلام، في محاجة أبيه آزر، إذ قال له: أتجعل من الأصنام آلهة تعبدها من دون الله تعالى، إني أراك وقومك في ضلال مبين وواضح عن طريق الحق، وهذا أسلوب اللين في الدعوة العملية، أما أسلوب الشدة التي أعقبت اللين في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٥٢-٥٤].

فالشدة كانت واضحة في تحقيره لما يعبدون فقد وبخهم بقوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا﴾ فهي تماثيل وصور لا روح فيها مصنوعة لا تضر ولا تنفع، فكيف تعبد من دون الله؟ فكان ردهم دليلاً على ضعفهم في مواجهة الموعظة الشديدة لهم من إبراهيم، عليه السلام، عندما قالوا: إننا تأسينا بآبائنا في عبادة تلك التماثيل والصور، لذلك كان ردّ إبراهيم، عليه السلام، قوياً شديداً رادعاً زاجراً ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في ضلال قديم وموروث وواضح الضلالة والغواية[1].

---

(١) باختصار وتصرف من محاسن التأويل للقاسمي ١١/ ٢٦٣.

(هـ) التحدي

ومن الأساليب العملية في دعوة إبراهيم، عليه السلام، التحدي والوقوف بندية ضد الكفار وتحمل تبعة ذلك ما دام هو على الحق المبين، قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: ٢١/٥٧].

ودائماً ما نرى أن المشركين والكفار في كل عصر ومصر يتحدون أنبياء الله ورسله، ويفترون عليهم ويطالبونهم بمسائل تظهر فيها صور التحدي، لذلك كان لا بد للأنبياء أن يتحدوهم في ذلك ليستبين أمر الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾ [الأنبياء: ٢١/٥].

(و) المفاصلة

يقول سبحانه وتعالى في سورة مريم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ۝٤٨﴾ [مريم: ١٩/٤٨].

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أتباعد عنكم ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من أصنامكم، والمراد بالدعاء هنا العبادة ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ أي أعبده وحده ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أي خائباً ضائع السعي، وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم مع التواضع بكلمة ﴿عَسَىٰٓ﴾ وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضيل من الله تعالى[1].

ولما تبين لإبراهيم، عليه السلام، أن أباه عدو لله، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير وأنه سيموت كافراً، تركه وترك الاستغفار له وتبرأ منه، فكانت

---

(١) محاسن التأويل، للقاسمي ١١/١٢٢.

المفاصلة بينه وبين أبيه مفاصلة الإيمان من الكفر، ونجد هذا المعنى واضحاً في سورة التوبة الآية ١١٤ قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ الآية.

وفي سورة الزخرف يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٢٦-٢٨].

جاء في تفسير الإمام ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، وجعل الكلمة الباقية وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهي (لا إله إلا الله) جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي إليها»[1].

(ز) الدعاء والتضرع إلى الله:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/١٢٧-١٢٩].

واذكر يا محمد حين رفع إبراهيم وإسماعيل أسس الكعبة، وهما يدعوان الله في خشوع: ربنا تقبل منا صالح أعمالنا ودعاءنا إنك أنت السميع لأقوال عبادك العليم بأحوالهم، ربنا واجعلنا ثابتين على الإسلام، منقادين

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٧/ ٢٢٥.

لأحكامك، واجعل من ذريتنا أمة مسلمة منقادة لك بالإيمان، وبصرنا بمعالم عبادتك، وتجاوز عن ذنوبنا، إنك أنت كثير التوبة والرحمة لعبادك، ربنا وابعث في هذه الأمة رسولاً من ذرية إسماعيل يتلو عليهم آياتك ويعلمهم القرآن والسنة، ويطهرهم من الشرك وسوء الأخلاق، إنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليه الشيء إذا أراد حدوثه، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها[١].

لقد دعا إبراهيم ربه وتضرع إليه بعد أن أسكن ابنه إسماعيل مع أمه وادي مكة أن يجعل الله مكة بلداً آمناً، وأن يبعده وبنيه أن يعبدوا الأصنام، لأن الأصنام تسببت في إبعاد كثير من الناس عن طريق الحق، إنك يا الله غفور لذنوب المذنبين بفضلك رحيم بهم، تعفو عمن تشاء منهم، ويظهر ضعفه لله تعالى متضرعاً أنه أسكن ذريته بواد ليس فيه زرع ولا ماء بجوار بيتك المحرم، ربنا إني فعلت ذلك امتثالاً لأمرك ليؤدوا الصلاة، فاجعل قلوب خلقك تنزع إليهم وتحن، وارزقهم في هذا المكان من أنواع الثمار، لكي يشكروا لك عظيم نعمك، فاستجاب الله دعاءه، ربنا إنك تعلم ما نخفيه وما نظهره، وما يغيب عن علمك شيء من الكائنات في الأرض ولا في السماء، ثم يثني إبراهيم على الله تعالى على أن رزقه على كبر في السن ولديه إسماعيل وإسحاق بعد دعائه أن يهبه ذرية صالحة، إن الله استمع لدعائه ولم يخيب رجاءه، ثم سأل الله أن يجعله مداوماً على أداء الصلوات على أتم وجه، وأن يجعل من ذريته من يحافظ عليها، وسأل الله أن يستجيب دعاءه ويتقبل عبادته، وأن يغفر له ما وقع منه مما لا يسلم منه البشر، وأن يغفر لوالديه من باب الإحسان إليهما، وأن يغفر للمؤمنين جميعاً يوم يقوم الناس للجزاء والحساب.

---

(١) بتصرف من التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص ٢٠.

إن كل تلك المعاني تضمنتها بضع آيات في سورة إبراهيم، عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٥-٤١].

ويقول تعالى في سورة الشعراء: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٣-٨٧].

قال إبراهيم داعياً ربه: امنحني العلم والفهم وألحقني بالصالحين، واجمع بيني وبينهم في الجنة، واجعل لي ثناء حسناً وذكراً جميلاً في الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة، واجعلني من عبادك الذين تورثهم نعيم الجنة، واصفح لأبي عن شركه بك، ولا تعاقبه عليه إنه كان ممن ضل عن سبيل الهدى وكفر بك، وهذا قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله، فلما تبين له ذلك تبرأ منه، ولا تلحق بي الذل يوم يخرج الناس من القبور للحساب والجزاء على أعمالهم التي عملوها في الدنيا[١].

---

(١) انظر التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص ٣٧١.

(ح) تحطيم الأصنام

كما نعلم فإن إبراهيم، عليه السلام، حطم أصنام قومه التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، فقطعها إرباً إرباً فصارت مكسرة مهشمة، وترك أكبر الأصنام حتى إذا رجعوا إليه وجدوه سالماً دون الأصنام الأخرى، فليسألوه إن كان ينطق أو يفهم. فما فعله إبراهيم، عليه السلام، كان منهجاً عملياً في إزالة المنكر باليد، وليتحمل في سبيل ذلك كل صنوف العذاب ولو كان الإحراق بالنار. يقول تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٥٧-٥٨].

ويقول الحق تبارك وتعالى في سورة الصافات: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٩١-٩٦].

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وذلك أنهم قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً يتبرك لهم فيه ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ لأنهم لم يجيبوا عليه سؤاله لهم بعدم الأكل، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ معناه مال عليهم ضرباً باليمين، لأنها أشد وأنكى، ولهذا تركهم جذاذاً ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ يسرعون، فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ تعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ والله خلقكم وعملكم، فالله يصنع كل صانع وصنعته[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٧/٢٦.

(ط) الهجرة

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

ونجينا إبراهيم ولوط، عليهما السلام، بالهجرة إلى الأرض المباركة وهي أرض الشام، بورك فيها بكثرة الأنبياء وإنزال الشرائع التي هي طريق السعادتين، وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب العيش فيها للغني والفقير، وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ولوط عليه السلام بسدوم[1].

ويقول تعالى موضحاً هجرة إبراهيم عليه السلام في سبيل الله وقد هاجر إبراهيم إلى فلسطين ومن قبل إلى مكة البلد الحرام، ومن الذين صدقوا إبراهيم عليه السلام وتبعوا ملته لوط عليه السلام الذي هاجر معه حينما ترك إبراهيم عليه السلام قومه مهاجراً إلى الشام من أجل الدعوة إلى الله ونشر دينه في الأرض، يقول تعالى في هذا المعنى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

(ن) بناء البيت

ذكر الله تعالى قصة العمل الجليل الذي كلف به إبراهيم، عليه السلام، بإعادة بناء الكعبة وتطهيرها لتكون مثابة للناس وأمناً في عدة مواضع من كتابه العزيز، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ

(١) محاسن التأويل للقاسمي، ١١/ ٢٧٠.

﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٥-١٢٧].

واذكر يا محمد حين جعلنا الكعبة مرجعاً للناس يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه، ومجمعاً لهم في الحج والعمرة والطواف والصلاة، وأمناً لهم، لا يغير عليهم عدو فيه، وقلنا: اتخذوا من مقام إبراهيم مكاناً للصلاة فيه، وهو الحجر الذي وقف عليه إبراهيم عند بنائه الكعبة، وأوحينا إلى إبراهيم وابنه إسماعيل: أن طهرا بيتي من كل رجس ودنس، صيانة للمتعبدين فيه بالطواف حول الكعبة أو الاعتكاف في المسجد والصلاة فيه، واذكر يا محمد حين قال إبراهيم داعياً: رب اجعل مكة بلداً آمناً من الخوف، وارزق أهله من أنواع الثمرات، وخص بالرزق من آمن بالله واليوم الآخر، قال الله: ومن كفر منهم فأرزقه في الدنيا وأمتعه متاعاً قليلاً، ثم ألجئه مرغماً إلى عذاب النار وبئس المرجع والمقام هذا المصير، واذكر يا محمد حين رفع إبراهيم وإسماعيل أسس الكعبة وهما يدعوان الله في خشوع: ربنا تقبل منا صالح أعمالنا ودعاءنا إنك أنت السميع لأقوال عبادك العليم بأحوالهم(١).

ويقول تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٦].

واذكر إذ دعونا إبراهيم وجعلنا له البيت مباءة مكاناً لعبادة الله وحده لا يشرك به شيئاً ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ من الأصنام والأوثان والأقذار لمن يطوف به ويقيم ويصلي فيه والقائمين بكثرة الصلاة بالإشارة إلى ذلك بقوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي الذين يركعون كثيراً ويسجدون كثيراً(٢).

---

(١) التفسير الميسر، ص ١٩.

(٢) انظر تفسير محاسن التأويل للقاسمي، ١٢/ ١٨.

(ك) المبادرة بامتثال أمر الله بذبح ابنه إسماعيل

وقد جاء هذا الأمر واضحاً بكل معانيه في آيات سورة الصافات: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/١٠١-١٠٦].

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل، عليه السلام، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، وقد كان إبراهيم عليه السلام، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد (فاران) وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك، وأعلم ابنه بأنه رأى في المنام أنه يذبحه ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي امض لما أمرك الله به من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد، ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ أكبه على وجهه، فلما تشهد وذكر الله تعالى، إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت، مسلمين ومنقادين لأمر الله لأن رؤيا الأنبياء وحي من الله، فصرع إبراهيم ابنه إسماعيل على وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ خرج عليه كبش من الجنة، وحصل المقصود من رؤيا إبراهيم من إضجاع ولده للذبح ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ هكذا نصرف عمن

أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، وقد اختلف علماء السلف فيمن هو الذبيح إسماعيل أم إسحاق، والصحيح المقطوع به هو أن الذبيح الذي ذكره الله في كتابه العزيز هو إسماعيل عليه السلام قاله ابن عباس»[١].

والحقيقة التي لا بد أن نؤكد عليها في هذا المقام هو أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وليس كما يدعي اليهود في كتبهم أنه إسحاق، عليه السلام، وللأسف فإن بعض الكتاب المسلمين انجروا وراء القصص الإسرائيلية في مسألة الذبيح واختلفوا فيمن يكون الذبيح؟ ولكن الحقيقة التي تؤيدها الشواهد والأدلة والفهم الصحيح للآيات القرآنية التي استند إليها أصحاب التفسير بالأثر تؤكد أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

---

(١) باختصار من تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٧/ ٢٧ - ٣٥.

المحاضرة الخامسة

منهج القرآن الكريم في إثبات عقيدة البعث

سلك القرآن الكريم مسالك عدة في إثبات عقيدة البعث بعد الموت تجمع بين الجوانب الفطرية والعقلية والحسية.

المسلك الأول

الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الحج:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٢٢/ ٥-٧].

يقول سيد قطب: أم إن الناس في ريب من البعث؟ وفي شك من زلزلة الساعة؟ إن كانوا يشكون في إعادة الحياة فليتدبروا كيف نشأت الحياة،

ولينظروا في أنفسهم وفي الأرض من حولهم حيث تنطق الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور، ولكنهم هم الذين يمرون على الدلائل في أنفسهم وفي الأرض غافلين، إن البعث إعادة لحياة كانت، فهو في تقدير البشر أيسر من إنشاء الحياة وإن لم يكن بالقياس إلى قدرة الله شيء أيسر ولا شيء أصعب، فالبدء كالإعادة، ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ومنطقهم وإدراكهم، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم، وهو يقع لهم في كل لحظة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الإنسان من ترابها نشأ، ومن ترابها تكوَّن، ومن ترابها عاش، ثم يبقى بعد ذلك سحر تحول النطفة إلى علقة، وتحول العلقة إلى مضغة، وتحول المضغة إلى إنسان، ومن العلقة إلى المضغة، ثم تتخلق فتتخذ شكلها بتحولها إلى هيكل عظمي يكسى باللحم أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدراً لها التمام ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ دلائل القدرة بمناسبة تبين الملامح في المضغة، فما شاء الله أن يتم تمامه أقره في الأرحام حتى يحين أجل الوضع ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ بعد تسعة أشهر ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ فتستوفوا نموكم العضلي، ونموكم العقلي، ونموكم النفسي، وكم بين الوليد والإنسان الشديد من مسافات في المميزات، ولكنها تتم بيد القدرة المبدعة التي أودعت الطفل الوليد كل خصائص الإنسان الرشيد ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ فأما من يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حي، وأما من يرد إلى أرذل العمر فيعدم العلم والرشد والوعي، إذ هو يرتد طفلاً في تقديره وتدبيره ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ولكي يفلت من عقله ووعيه ذلك العلم الذي ربما تخايل به وتطاول وجادل في الله وصفاته بالباطل، ثم تستطرد الآية إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء في الأرض والنبات بعد عرض مشاهد الخلق والإحياء في الإنسان ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ والهمود درجة بين الحياة والموت، وهكذا تكون الأرض قبل الماء، وهو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء، فإذا نزل عليها الماء ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾

فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز، وهي تشرب الماء فتربو ثم تتفتح بالحياة عن النبات ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ وهل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون وتنتفض بعد الهمود؟ إنها لدليل على وحدة عنصر الحياة وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك في الأرض والنبات والحيوان والإنسان ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ إن خلق الإنسان والنبات ذلك متعلق بأن الله هو الحق ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فإحياء الموتى هو إعادة الحياة والذي أنشأ الحياة الأولى هو الذي ينشئها للمرة الأخيرة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء، فهل البعث تقتضيه حكمة الخلق والتدبير، فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة، وهي تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تقدير الإنسان في الدارة الآخرة، وتشهد كلها على قدرة الله الخالق المدبر[١].

ويقول تعالى في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٣٦/ ٧٧-٧٩].

هذه الآية ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث وللتعجيب من جهله، فإن مشاهد خلقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام وردها كما كانت، والإنسان المذكور في الآية

---

(١) باختصار من ظلال القرآن لسيد قطب، ٤/ ٢٤٠٨ وما بعدها.

المراد به جنس الإنسان ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إذا هنا فجائية ألم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء ففجأ خصومتنا في أمر قد قامت فيه عليه حجج الله وبراهينه، والخصيم الشديد الخصومة الكثير الجدال، ومعنى المبين المظهر لما يقوله الموضح له بقوة عارضته وطلاقة لسانه ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ هذا الاستفهام للإنكار لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد فأنكر أن الله يحيي العظام وهي رميم، العظام البالية حيث لم يكن في مقدور البشر ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ابتدأها وخلقها أول مرة من غير شيء ومن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية، ولا يخرج عن علمه خارج كائناً ما كان، وهو القادر على البعث بعد الممات[1].

ويقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٩-٥١].

يقول ابن كثير، رحمه الله، في تفسير هذه الآيات: ﴿أَءِنَّا﴾ استفهام والمراد به الجحد والإنكار ﴿خَلْقًا﴾ يعني بعثاً جديداً، وكان هذا غاية الإنكار منهم، قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠﴾ أي: قل لهم يا محمد: كونوا على جهة التعجيز حجارة أو حديداً إن قدرتم، ومعناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم، ومعناه أيضاً: لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم

(١) فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني، طباعة دار الحديث، مصر، ط ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ٤/ ٥٣٧.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني السماوات والأرض والجبال لعظمها في النفوس، وقال ابن عباس: يعني الموت، لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه، فالقادر على النشأة قادر على الإعادة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يحركون رؤوسهم باستغراب متعجبين من ذلك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: البعث والإعادة وهذا الوقت ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب لأن عسى واجب، نظيره ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ﴾ فالساعة آتية وكل آت قريب[١].

ويقول تعالى في سورة مريم: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾[٢].

أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه وهو يعترض على البعث وهو غافل عن نشأته الأولى فأين كان؟ وكيف كان؟ إنه لم يكن ثم كان، والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ ثم يعقب على هذا الإنكار والاستنكار بقسم تهديدي، يقسم الله تعالى بنفسه وهو أعظم قسم وأجله، إنهم سيحشرون بعد البعث فهذا أمر مفروغ منه[٣].

إن الله تعالى يخلق الناس أولاً ثم يعيدهم بعد الموت، والإعادة أهون وأيسر لأنه يقول له يوم القيامة: كن فيكون، وابتداء الخلقة من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، وله المثل الأعلى فهو ليس كمثله شيء، ونجد هذه المعاني واضحة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٠/ ٢٣٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٠/ ٢٣٩، ٢٤٠.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٣١٧.

المسلك الثاني

الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيها

إن السماوات والأرض شاهدة بعظمتها على قدرة الله الخالق المبدع، لذا نجد أن الله تعالى يقسم بهما في كثير من آياته استدلالاً بهما على قدرته ووجوده ووحدانيته وسائر صفات كماله سبحانه وتعالى الخالق المبدع، وهي على عظمتها في الخلق دليل واضح على قدرة الله على البعث والنشور يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٩٨-٩٩].

قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أن ذلك العذاب جزاء كفرهم ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي تراباً ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه، قادر على أن يخلق مثلهم، والأجل مدة قيامهم في الدنيا ثم موتهم، وذلك مما لا شك فيه إذ هو مشاهد، وقيل: هو يوم القيامة ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: المشركون إلا جحوداً بذلك الأجل وبآيات الله، وذلك الأجل هو وقت البعث لا ينبغي أن يشك فيه[1].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٠/٢٩١.

ويقول تعالى في سورة يس: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨١].

معنى الآية أن من قدر على خلق السماوات والأرض وهما في غاية العظم وكبر الأجزاء يقدر على إعادة خلق البشر الذي هو صغير الشكل ضعيف القوة، بلى هو القادر على ذلك، وهو القوي في الخلق والعلم على أكمل وجه وأتمه، ثم ذكر سبحانه ما يدل على كماله وكمال قدرته وتيسر المبدأ والإعادة عليه سبحانه العليم بكل شيء والقادر على فعل كل شيء[١].

ويقول تعالى في سورة الأحقاف: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٣].

لقد غفلوا ولم يعلموا أن الله الذي خلق السماوات والأرض على غير مثال سابق ولم يعجز عن خلقهن قادر على إحياء الموتى الذين خلقهم أولاً، بلى ذلك أمر يسير على الله تعالى الذي لا يعجزه شيء إنه على كل شيء قدير[٢].

إن الآيات المتقدمة تدل دلالة واضحة على قدرة الله سبحانه وتعالى الذي خلق السماوات والأرض، قادر على بعث الموتى للحساب.

المسلك الثالث

الاستدلال بخروج النبات من الأرض

إن الله تعالى هو الذي يرسل الرياح الطيبة اللينة مبشرات بالغيث الذي يثمر بإذن الله، فيستبشر الخلق برحمة الله، حتى إذا حملت الريح السحاب

---

(١) راجع فتح القدير للشوكاني، ٤/ ٥٣٩.

(٢) التفسير الميسر، ص ٥٠٦.

المحمل بالمطر ساقه الله بها لإحياء بلد قد أجدبت أرضه، ويبست أشجاره وزرعه، فأنزل الله به المطر، فأخرج به الكلأ والأشجار والزروع، فعادت أشجاره محملة بأنواع الثمرات، كما يحيي الله هذا البلد الميت بالمطر يخرج الموتى من قبورهم أحياء بعد فنائهم، ليتعظ الناس فيوحدوا الله تعالى ويؤمنوا بقدرته على البعث قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٧].

ويقول تعالى في سورة فاطر: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٩].

والله هو الذي أرسل الرياح فتحرك سحاباً، فسقناه إلى بلد جدب، فينزل الماء، فأحيينا به الأرض بعد يبسها فتخضر بالنبات، مثل ذلك الإحياء يحيي الله الموتى يوم القيامة[١].

ومن آيات الله سبحانه وتعالى على قدرته على إعادة الموتى أنك ترى الأرض هامدة لا نبات فيها، بل هي ميتة، فإذا أنزل الله عليها الماء أخرجت من جميع أنواع الزروع والثمار، فالله الذي أحيا هذه الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الموتى من قبورهم لأن الله على كل شيء قدير فلا يعجزه شيء أبداً[٢].

يقول تعالى في هذا المعنى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٩].

---

(١) انظر التفسير الميسر، ص ٤٣٥.

(٢) بتصرف من تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٧/ ١٨٢.

المسلك الرابع

الاستدلال بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت

هنالك أمثلة متعددة في القرآن الكريم تعدُّ نماذج في أن الله تعالى أمات بعض الناس في الدنيا ثم أحياهم، ليعتبروا ويؤمنوا بالبعث بعد الموت ومن ذلك:

(أ) صاحب القرية

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٩].

مثل الذي مرَّ على قرية تهدمت دُورها، وخوت على عروشها فقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؟ فأماته الله مئة عام، ثم رد إليه روحه وبعث إليه من يسأله فقال له: كم بقيت في هذا المكان ميتاً؟ قال: بقيت يوماً أو بعض يوم، فأخبره بأنه بقي ميتاً مئة عام، وأمره أن ينظر إلى طعامه وشرابه وكيف حفظهما الله من التغير هذه المدة الطويلة، وأمره أن ينظر إلى حماره كيف أحياه الله بعد أن كان عظاماً متفرقة؟ وقال له: ولنجعلك آية للناس، أي دلالة ظاهرة على قدرة الله على البعث بعد الموت، وأمره أن ينظر إلى العظام كيف يرفع الله بعضها على بعض؟ ويصل بعضها ببعض، ثم يكسوها بعد الالتئام لحماً، ثم يعيد فيها الحياة؟ فلما اتضح له ذلك عياناً اعترف بعظمة الله، وأنه على كل شيء قدير، وصار آية للناس(١).

---

(١) التفسير الميسر، ص ٤٣.

ولم يسمّ الله صاحب القرية ولا القرية التي مر عليها وهي خاوية على عروشها حينما تساءل كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها، لحكمة يعلمها الحق تبارك وتعالى، وفي هذا الأمر يعلق صاحب الظلال بقوله: «إن القرآن لم يفصح عنها شيئاً، ولو شاء الله لأفصح، ولو كانت حكمة النص لا تتحقق إلا بهذا الإفصاح ما أهمله في القرآن»[1].

(ب) إحياء الطيور لإبراهيم عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٠].

إنه التشوق إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية، وحين يجيء هذا التشوق من إبراهيم الأواه الحليم المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من التشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين، لقد كان ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ لقد أمره الله أن يختار أربعة فيقربهن منه ويميلهن إليه وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة ثم يدعوهن فتتجمع أجزاؤهن مرة أخرى، وترتد إليهن الحياة، ويعدن إليه ساعيات، رأى إبراهيم هذا السر يقع بين يديه طيور فارقتها الحياة، وتفرقت مزقها في أماكن متباعدة تدب فيها الحياة مرة أخرى وتعود إليه سعياً إنه علم الله العزيز الحكيم[2].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٢٩٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٣٠٢.

(ج) الملأ من بني إسرائيل

لقد صحح القرآن التصور عن الموت والحياة، فإن الحذر من الموت لا يجدي، وإن الفزع والهلع لا يزيدان الحياة، ولا يمدان أجلاً، ولا يردان قضاء، وإن الله هو واهب الحياة وهو آخذ الحياة، إن تجمع أولئك القوم، وهم ألوف وخروجهم من ديارهم حذر الموت كانت في تلك الحالة من الجزع والهلع، فهذا كله لم يغن عنهم من الموت شيئاً، فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم مرة أخرى، إن الله وهبهم الحياة من غير جهد منهم في حين أن جهدهم لم يرد الموت عنهم، وفضل الله على الناس عظيم فمن فضله نعمة الحياة التي يجب شكر الله سبحانه وتعالى عليها، يقول تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٣].

(د) قوم موسى السبعون الذين اختارهم الله

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٥٥-٥٦].

واذكر إذ قلتم يا موسى: لن نصدقك في أن الكلام الذي نسمعه هو كلام الله، حتى نرى الله عياناً، فنزلت نار من السماء رأيتموها بأعينكم فقتلتكم بسبب ذنوبكم وجرأتكم على الله، ثم أحييناكم من بعد موتكم بالصاعقة، رجاء أن تشكروا نعمة الله عليكم، فهذا الموت عقوبة لهم، ثم بعثهم الله لاستيفاء آجالهم، فالقصة دليل واضح على إثبات عقيدة البعث بعد الموت[١].

(١) التفسير الميسر، ص ٨.

(هـ) القتيل الذي ضرب بعضو من أعضاء البقرة

إن قصة القتيل الذي ضرب بعضو من أعضاء البقرة دليل على قدرة الخالق وحقيقة البعث وطبيعة الموت والحياة، لقد كانوا قتلوا نفساً منهم، ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه، ولم يكن هناك شاهد، فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته، وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح، وهكذا كان فعادت إليه الحياة، ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله، وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين، وهذا الأمر يسير في حساب القدرة الإلهية حتى يعقل الناس آيات الله ويدركوها طاعة واستجابة وتسليماً، لقد انتفض الميت مبعوثاً ناطقاً على ضربه من بعض جسد بقرة، بكماء مذبوحة، ليس فيها حياة ولا مادة حياة، ليلتقي جمال الأداء التعبيري بحكمة السياق الموضوعية في هذه القصة من قصص القرآن الكريم[(١)]. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٧٢-٧٣].

المسلك الخامس

الاستدلال بإخراج النار من الشجر الأخضر

إن الله سبحانه وتعالى بقدرته أخرج لنا من الشجر الأخضر الرطب ناراً محرقة، وفي هذا دليل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، ومن ذلك قدرته سبحانه إخراج الموتى من قبورهم أحياء ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨٠].

---

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٧٩ وما بعدها.

يقول الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآية: هنا رجوع منه سبحانه وتعالى إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم، فيدل سبحانه وتعالى على وحدانيته، ويدل سبحانه على قدرته على إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب، وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ والمعروف بالعفار إذا قطع منها عودان وضرب أحدهما بالآخر انقدحت منهما النار، وهما أخضران ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾»[1].

المسلك السادس

الاستدلال بحصول اليقظة بعد النوم

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٠-٦٢].

وهو سبحانه الذي يقبض أرواحكم بالليل بما يشبه قبضها عند الموت، ويعلم ما اكتسبتم في النهار من الأعمال، ثم يعيد أرواحكم إلى أجسامكم باليقظة من النوم نهاراً بما يشبه الإحياء بعد الموت، لتقضى آجالكم المحددة في الدنيا ثم إلى الله تعالى معادكم بعد بعثكم من قبوركم أحياء، ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا ثم يجازيكم بذلك، والله تعالى هو القاهر فوق عباده فوقية مطلقة من كل وجه تليق بجلاله سبحانه وتعالى، كل شيء خاضع لجلاله وعظمته، ويرسل على عباه ملائكة يحفظون أعمالهم ويحصونها

(١) فتح القدير للشوكاني، ٤/ ٥٣٩.

حتى إذا نزل الموت بأحدهم قبض روحه ملك الموت وأعوانه، وهم لا يضيعون ما أمروا به، ثم أعيد هؤلاء المتوفون إلى الله تعالى مولاهم الحق ألا له القضاء والفصل يوم القيامة بين عباده، وهو أسرع الحاسبين[1].

ويقول تعالى في سورة الزمر مبيناً أيضاً العلاقة والشبه والتقارب بين النوم والموت بقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٢].

في الآية دلالة على أن الأنفس تجمع في الملأ الأعلى، فيقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وإحياء الأرواح إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله لها أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٢] التي قد ماتت ويرسل الأخرى يتركها إلى أجل مسمى إلى بقية أجلها، وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء، وفي هذا آيات دالة على قدرة الله على البعث لمن أعمل النظر وتفكر في آيات الله سبحانه وتعالى[2].

المسلك السابع

الاستدلال بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأوجده على ظهر البسيطة، وأغدق عليه من النعم ما لا تحصى، لأداء وظيفة العبادة لله سبحانه وتعالى فلم يخلق الله الإنسان عبثاً، ولو لم تكن هنالك دار آخرة يحاسب الإنسان على ما عمل فيها في الدنيا لانتفت الحكمة من تكليف الإنسان بالعبادة، لذا فإن الله تعالى لم يخلقنا عبثاً ولن يتركنا سدى كما يعتقد منكرو البعث ومتبعو الهوى ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣٦].

---

(١) التفسير الميسر، ص ١٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٧/ ١٠٢.

فلن يترك الإنسان هملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولا يعاقب. ويقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٥].

يقول الشيخ القاسمي في تفسير هذه الآية: «أفحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة حتى أنكرتم البعث ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: تعاظم عما تصفون لأنه ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ المتصرف وحده الذي قصد بالخلق معرفته وعبادته والذي لا يترك الجزاء بل يحق الحق».

إن النظرة المادية للحياة تجعل تفكير الإنسان مقصوراً في تحصيل ملذاته العاجلة ويكون عمله محصوراً في نطاق ذلك فلا يتجاوز تفكيره ما وراء ذلك من العواقب ولا يعمل له ولا يهتم بشأنه ولا يعلم أن الله جعل هذه الحياة الدنيا مزرعة للآخرة، فجعل الدنيا دار عمل وجعل الآخرة دار جزاء، فمن استغل دنياه بالعمل الصالح ربح الدارين، ومن ضيع دنياه ضاعت آخرته، فالله لم يخلق هذه الدنيا عبثاً، بل خلقها لحكمة عظيمة، أوجد الله سبحانه في هذه الحياة من المتع العاجلة والزينة الظاهرة من الأموال والأولاد والجاه والسلطان وسائر المستلذات ما لا يعلمه إلا الله، فمن الناس وهم كثر من قصر نظره على ظاهرها ومفاتنها ومتع نفسه بها ولم يتأمل في سرها، فانشغل بتحصيلها وجمعها والتمتع بها عن العمل لما بعدها، بل أنكر أن تكون هناك حياة غيرها، فهي نظرة بهيمية لأن البهائم ليس لها مصير ينتظرها، وليس لها عقول تفكر بها، بخلاف أولئك أصحاب النظرة المادية وإن كانوا أهل خبرة في المخترعات والصناعات فهم جهال لا يستحقون أن يوصفوا بالعلم، لأن علمهم لم يتجاوز ظاهر الحياة الدنيا، لكن النظرة الصحيحة للحياة الدنيا هي أن يعتبر الإنسان ما في هذه الحياة الدنيا من مظاهر مادية وسيلة يستعان بها لعمل الآخرة، فالدنيا لا تذم لذاتها إنما الذم والمدح إلى فعل العبد فيها، فهي معبر للآخرة، وهي زاد

الجنة، فهي دار الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله والتسابق للخيرات للفوز برضوان الله في الآخرة»[١].

(١) انظر كتاب التوحيد للدكتور صالح بن فوزان الفوزان، ط مكتبة الأثير، الرياض ٤٦.

المحاضرة السادسة

مكائد الشيطان وطرق الحذر منها كما عرضها القرآن الكريم

المبحث الأول

مكائد الشيطان

للشيطان أعاذنا الله منه مكائد كثيرة، وطرق عديدة في إغواء الإنسان عن جادة الطريق المستقيم، فهو يزين الباطل، ويصوره بغير صورته الحقيقية، ويوعد الإنسان ويمنيه، ويظهر النصح له وهو يهدف لإضلاله، وينسي الإنسان فعل الخير والصلاح، ويحاول تخويف المؤمن من أوليائه، ويلقي الشبهات، ويتخذ من الخمر والميسر والسحر طرقاً ينفذ من خلالها إلى تدمير الإنسان عدوه الأول، وإلى تدمير الإنسانية بأسرها، كل تلك الطرق والمكائد الشيطانية تناولها القرآن الكريم في آيات متفرقة ومواضع متعددة من سوره العديدة.

المكيدة الأولى: تزيين الباطل

قال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ١٥/٣٩-٤٠].

قال إبليس: رب بسبب ما أغويتني وأضللتني لأُحَسِّنَن لذرية آدم معاصيك في الأرض، ولأضلنهم أجمعين عن طريق الهدى، إلا عبادك الذين هديتهم فأخلصوا لك العبادة وحدك دون سائر خلقك فسأزين لهم الباطل حتى يقعوا فيه[١].

ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٧].

يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: «وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله عن سبيل الحق، فيزينون لهم الضلالة ويكرهون إليهم الإيمان بالله والعمل بطاعته، ويحسبون أنهم مهتدون، يقول: ويظن المشركون بالله بتحسين الشياطين لهم ما هم عليه من الضلالة أنهم على الحق والصواب مع ما هم عليه من الشرك والشك وعلى غير بصيرة»[٢].

المكيدة الثانية: تسمية الأمور بغير اسمها

لقد كان إغواء الشيطان لأبي البشر آدم وزوجه أم البشر حواء عن طريق الوسوسة وتصوير الشيء بغير صورته لإيقاعهما في معصية الله تعالى، بالأكل من تلك الشجرة التي نهاهما الله عنها، لتكون عاقبتهما انكشاف ما ستر من عوراتهما، وقال لهما في محاولة المكر والكيد وتسمية الشيء بغير اسمه: إنما نهاكما ربكما عن الأكل من ثمر هذه الشجرة من أجل ألا تكونا ملكين، ومن أجل ألا تكونا من الخالدين في الحياة، فهو صور لهما النهي بغير صورته الحقيقية كما سماه الشيطان بغير اسمه الذي سماه الله به، وفي هذا المعنى يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا

---

(١) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص ٢٦٤.

(٢) تفسير الطبري، ٢٥/ ٤٤.

وُرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠].

ويقول عز من قائل في سورة طه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٠].

فوسوس الشيطان لآدم وقال له: هل أدلك على شجرة، إن أكلت منها خلدت فلم تمت، وملكت ملكاً لا ينقضي ولا ينقطع؟ فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله تعالى عنها، وخالف آدم ربه فغوى بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها[1].

والشجرة رمز لكل أمر حرام حرمه الله تعالى على عباده حتى لا يقعوا فيه، فالشيطان في عصرنا الحاضر يصور لنا الحرام بغير صورته الحقيقية ومعه شياطين الإنس، يسمون الخمر بغير اسمها مشروبات روحية، ويسمون الفاحشة الكبرى الزنا وتوابعها بغير اسمها ترويحاً عن النفس، ويسمون المضيفات العاريات في شركات الخطوط الجوية بغير اسمها بالملاك الطاهر مع العلم بأنها تسافر من غير محرم ليالي عديدة، وتبيت حيث نعلم ولا نعلم، ويسمون الميسر والقمار بغير اسمه يانصيب وجرب حظك يمكن تكسب! ويسمون الكذب والخداع والغش بغير اسمه سياسة، ويسمون الربا بغير اسمه فوائد ومنفعة، إنها جميعاً وسائل الشيطان ومكائده أعاذنا الله منها.

المكيدة الثالثة: الوعد والتمنية

يعد الشيطان أتباعه بالوعود الكاذبة، ويغريهم بالأماني الباطلة الخادعة،

---

(١) التفسير الميسر، ص ٣٢٠.

وما يعدهم إلا خديعة لا صحة فيها ولا دليل عليها فيوقعهم بهذه المكيدة في الضلال والشقاء، يقول تعالى في هذا المعنى مبيناً هذه الوسيلة والطريقة الشيطانية في إغواء البشر: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢٠].

ويقول تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٨].

حسَّن الشيطان للمشركين ما جاؤوا له وهموا به، وقال لهم: لن يغلبكم أحد اليوم، وإني ناصركم. فلما تقاتل الفريقان: المشركون ومعهم الشيطان، والمسلمون ومعهم الملائكة، رجع الشيطان مدبراً بعد أن مناهم ووعدهم بالنصر، وقال للمشركين: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون من الملائكة الذين جاؤوا مدداً للمسلمين، إني أخاف الله. فخذلهم وتبرأ منهم بعد أن ساقهم إلى حتفهم ومصيرهم المشؤوم من القتل والأسر، وأبان لهم أن الله شديد العقاب لمن عصاه وعاداه وحاربه، فكانت وعود الشيطان لهم كاذبة وأمانيه لهم باطلة[1].

المكيدة الرابعة: إظهار النصح للإنسان

لقد أقسم الشيطان من قبل لآدم وحواء إنه ناصح أمين لهم في مشورته عليهما بالأكل من الشجرة مع أنه كاذب مضلل، وفي كثير من الأحيان يظهر الشيطان للإنسان هذه المكيدة ويأتيه عن طريق فعل الخير ليحرمه من حصول الخير له أصلاً، وهذه من طرق الشيطان الخبيثة التي أوقع بها كثيراً

---

(١) انظر التفسير الميسر، ص ١٨٣.

من الناس في الضلال المبين يقول تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢١].

ويقول تعالى في سورة الحشر في ذات المعنى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٦].

يقول ابن كثير رحمه الله: «كمثل الشيطان إذ سول للإنسان - والعياذ بالله - الكفر، فإذا دخل فيما سوله له تبرأ منه وتنصل بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فكانت عاقبة الأمر والكفر والفاعل له والمصير إلى جهنم، وهذا جزاء كل من ظلم نفسه»[(١)].

وقد نزلت هذه الآيات في المنافقين الذين أغروا اليهود على القتال ووعدوهم بالنصر على رسول الله ﷺ، كمثل الشيطان حين زين للإنسان الكفر ودعاه إليه فلما كفر قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب الخلق أجمعين.

المكيدة الخامسة: إنساؤه للإنسان الخير والصلاح

وجه الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أنه إذا وجد المشركين يتكلمون في آيات الله بالباطل ويستهزؤون بالقرآن أن يبتعد عنهم حتى يأخذوا في حديث آخر، وإن أنساه الشيطان هذا الأمر فعليه ألا يقعد بعد أن يتذكر هذا النهي مع القوم المعتدين الذين تكلموا في آيات الله بالباطل، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٨].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، طبعة دار طيبة السعودية، ٨/ ٧٦.

ويقول تعالى في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٤٢].

وقال يوسف للذي علم أنه ناج من صاحبيه: اذكرني عند سيدك الملك، وأخبره بأني مظلوم محبوس بلا ذنب. فأنسى الشيطان ذلك الرجل حال يوسف، فمكث يوسف بعد ذلك في السجن عدة سنوات[١].

ويقول تعالى في سورة الكهف: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٣].

قال له خادمه: أتذكر حين لجأنا إلى الصخرة التي استرحنا عندها؟ فإني نسيت أن أخبرك ما كان من الحوت، وما أنساني أن أذكر ذلك لك إلا الشيطان، فإن الحوت الميت دبت فيه الحياة، وقفز في البحر، واتخذ له فيه طريقاً وكان أمره مما يعجب منه[٢].

وجاء في سورة المجادلة حول هذه المكيدة الشيطانية النسيان: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١٩].

استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله عزّ وجل وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله فأصبحوا خاسرين[٣].

---

(١) التفسير الميسر، ص ٢٤٠.

(٢) التفسير الميسر، ص ٣٠.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٨/ ٥٣.

لقد غلب عليهم الشيطان واستولى عليهم حتى تركوا أوامر الله والعمل بطاعته فمكيدة الشيطان - وهي إنساؤهم عمل الخير وفعل الطاعات - جعلتهم يخسرون الدنيا والآخرة.

المكيدة السادسة: تخويف المؤمنين من أوليائه

يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٥].

من مكائد الشيطان التخويف وتثبيط الهمم فيأتي دائماً للمؤمنين عند ملاقاة أعدائهم ليخوفهم من الأعداء اليهود والنصارى والمشركين بأنهم أقوياء ويملكون أسلحة فتاكة وعتاداً قوياً لن تستطيعوا منازلتهم فخافوهم وابتعدوا عن طريقهم فأنتم أيها المؤمنون ضعاف، ولكن في حقيقة الأمر فإن الضعاف هم حزب الشيطان إنه لا ناصر لهم، فلذلك يجب على المؤمنين أن يخافوا الله بالإقبال على طاعته والقتال في سبيله إيماناً بالله وتصديقاً واتباعاً لرسوله محمد ﷺ فلا خوف إلا من الله القوي العزيز.

المكيدة السابعة: إلقاء الشبهات

يقول تعالى في سورة الحج: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

وما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ كتاب الله ألقى الشيطان في قراءته الوساوس والشبهات ليصدوا الناس عن اتباع ما

يقرؤنه ويتلونه، لكن الله يبطل كيد الشيطان فيزيل وساوسه ويثبت آياته الواضحات والله عليم بما كان ويكون، لا تخفى عليه خافية، حكيم في تقديره وأمره، وما كان هذا الفعل من الشيطان إلا ليجعله اختباراً للذين في قلوبهم شك ونفاق، ولقساة القلوب من المشركين الذين لا يؤثر فيهم زجر، وإن الظالمين من هؤلاء وأولئك في عداوة شديدة لله ورسوله وخلاف للحق بعيد عن الصواب، وليعلم أهل العلم الذين يفرقون بعلمهم بين الحق والباطل أن القرآن الكريم هو الحق النازل من عند الله عليك يا محمد لا شبهة فيه، ولا سبيل للشيطان إليه، فيزداد به إيمانهم، وتخضع له قلوبهم، وإن الله لهادي الذين آمنوا به وبرسوله إلى طريق الحق الواضح وهو الإسلام ينقذهم به من الضلال(١).

المكيدة الثامنة: الخمر والميسر والسحر

لقد اتبع اليهود ما تحدث به الشياطين السحرة على عهد ملك سليمان بن داوود وما كفر سليمان ولكن الشياطين هم الذين كفروا بالله حين علموا الناس السحر إفساداً لدينهم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين هاروت وماروت بأرض بابل في العراق امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده، وما يعلم الملكان من أحد حتى ينصحاه ويحذراه من تعلم السحر ويقولا له: لا تكفر بتعلم السحر وطاعة الشياطين، فيتعلم الناس من الملكين ما يحدثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرقا، ولا يستطيع السحرة أن يضروا به أحداً إلا بإذن الله وقضائه، وما يتعلم السحرة إلا شراً يضرهم ولا ينفعهم، وقد نقلته الشياطين إلى اليهود فشاع فيهم حتى فضلوه على كتاب الله، ولقد علم اليهود أن من اختار السحر وترك الحق ما

---

(١) التفسير الميسر، ص ٢٣٨.

له في الآخرة من نصيب في الخير، ولبئس ما باعوا به أنفسهم من السحر والكفر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول لو كانوا لهم علم بما وعظوا به[١] فالسحر مكيدة قديمة من مكائد الشيطان التي يضل بها الناس عن سبيل الله وقد تفشت في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية هذه الظاهرة مما يجب على المسلمين محاربتها حتى ينجيهم الله تعالى من مكائد الشيطان يقول تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٢].

وفي أمر الخمر والميسر يقول تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٩٠-٩١].

يخاطب الحق تبارك وتعالى الذين صدقوا بالله واتبعوا رسوله ويوضح لهم أن الخمر وهي كل مسكر يغطي العقل، والميسر وهو القمار، وذلك يشمل المراهنات وما يشبهها من ألعاب الحظ وغيرها، بما فيه عوض من الجانبين وصد عن ذكر الله، والأنصاب وهي الحجارة التي كان المشركون يذبحون عندها تعظيماً لها، وما ينصب للعبادة تقرباً إليه، والأزلام وهي القداح

---

(١) تفسير سورة البقرة: أضواء البيان للشنقيطي، طباعة عالم الكتب بيروت، ١/ ٨٠.

يستقسم بها الكفار قبل الإقدام على الشيء أو الإحجام عنه، إن ذلك كله إثم من تزيين الشيطان فيجب الابتعاد عن هذه الآثام لعلنا نفوز بجنة الله، لأن الشيطان يريد بهذه المكيدة ﴿ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ أن يلقي بين الناس ما يوجب العداوة والبغضاء، ويصرفهم عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة بغياب العقل بالمسكر، وباللهو في الميسر، فعلى الناس أن ينتهوا ويبتعدوا عن تعاطي الخمر وما شابهها من المخدرات وكافة أنواع المسكرات، وعن الميسر بكل أنواعه حتى لا نتبع الشيطان فنخسر الدنيا بالخمر والميسر والآخرة بالبعد عن رضوان الله والوقوع في النار وبئس المصير أعاذنا الله.

المبحث الثاني

طرق الحيطة والحذر من الشيطان

هنالك طرق عديدة في اتقاء شر الشيطان أرشدنا الله إليها في كتابه العزيز، ومن هذه الطرق التعوذ من الشيطان، والتمسك بالكتاب والسنة، واللجوء إلى الله والاحتماء به من شر الشيطان، ونتناول إن شاء الله تعالى هذه الطرق من خلال الآيات التي تحدثت عنها حتى نلزم ما يجنبنا الشيطان والوقوع في مكائده وحيله.

أولاً: الالتزام بالكتاب والسنة

يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢/١٦٨-١٦٩].

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٠٨]

الأمر في الآية الأولى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ للإباحة والحل لما في الأرض إلا المحظور القليل الذي ينص عليه القرآن نصاً، وعلى الناس أن يعلموا الحلال والحرام من رازقهم لا من إيحاء الشيطان الذي لا يوحي بخير، لأنه عدو للناس بين العداوة، لا يأمر إلا بالسوء وبالفحشاء وإلا بالافتراء على الله، ولكي يتقي الناس الشيطان عليهم الالتزام بكتاب الله تعالى وما فيه من أمر ونهي واتباع سنة المصطفى ﷺ، وفي الآية الأخيرة التي سقناها من سورة البقرة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ يدعو المؤمنين أن يدخلوا في السلم كافة، وأول التسليم هو أن يسلم المؤمن بكلياته لله رب العالمين، وألا يخضع إلا لله، وأن يرضى بحكمه وقضاه، استسلام طاعة مليئة بالاطمئنان الذي يقوده لرضوان الله وسعادة الدنيا والآخرة، وحذر الله المؤمنين أن يختاروا طريق الله ويتركوا طريق الشيطان، أن يتبعوا هدى الله، ويجتنبوا غواية الشيطان، إن عداوة الشيطان للإنسان واضحة بينة لا ينساها إلا غافل، والغفلة لا تكون إلا مع اتباع الشيطان، ومخالفة الشيطان لا تكون إلا باتباع منهاج الكتاب والسنة[1].

ويقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٣].

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: «لقد نهى الله وأمر وحذر عن اتباع غير سبيله، وأمر باتباع طريقه، والصراط الطريق الذي هو دين الإسلام مستقيماً مستوياً قويماً لا اعوجاج فيه، فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان نبيه محمد ﷺ وشرعه، ونهايته الجنة، وتشعبت منه طرق فمن

---

(١) بتصرف من ظلال القرآن، لسيد قطب، ١/ ٢١٠.

فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار، فتميل البدع والأهواء وهي سبل الشيطان التي يدعو إليها، فكل تلك السبل عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد»[1].

ومن هنا نعلم أن الالتزام بالكتاب والسنة من أهم طرق الحيطة والحذر، بل هي الوقاية من الشيطان ومكائده.

ثانياً: اللجوء إلى الله والاحتماء به

يقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٠-٢٠٢].

نزغ الشيطان وسواسه ومعنى ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ يصيبنك ويعرض لك ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ﴾ أي: اطلب النجاة من ذلك بالله، فأمر تعالى أن يدفع الوسوسة بالالتجاء إليه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يريد الشرك والمعاصي ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الطيف: الغضب والجنون ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ ذكروا الله تعالى ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ منتهون ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ قيل: المعنى وإخوان الشياطين وهم الفجار من ضُلاَّل الإنس تمدهم الشياطين في الغي، وقيل للفجار إخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم ﴿ٱلْغَىِّ﴾ الجهل، والمعنى يزيدنهم في الغي والضلال[2].

ويقول تعالى في سورة النحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٨-٩٩].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٧/ ١٢٤.

(٢) باختصار من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٧/ ٣٠٤ وما بعدها.

هذا أمر من الله لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهو أمر للندب لا للوجوب، حتى لا يلبس الشيطان على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن التلاوة تسبقها الاستعاذة، والشيطان ليس له على المؤمنين سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، ولا حجة له عليهم، وإنما سلطانه على الذين يطيعونه[1].

ثالثاً: الاستعاذة بذكر الله من الشيطان

إن أصل الشيطان مشتق من شطن أي تباعد، ومنه بئر شطون أي: بعيدة القعر، وعلى ذلك فالنون أصلية، ويكون الشيطان قد سمي بهذا الاسم لأن الله طرده من رحمته كما أخبرنا الحق تبارك وتعالى، أنه قال للشيطان عندما عصاه ورفض الانصياع لأمره: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤﴾ وقيل: اشتقاقها من شاط يشيط إذا احترق غضباً، فالشيطان مخلوق من نار، ولذلك اختص بفرط القوة العصبية والحمية الذميمة، الرجيم: أصل الرجم الرمي بالحجارة، ويستعار الرجم للرمي بالظن والتوهم والشتم، ووصف الله تعالى الشيطان بالرجيم، لأنه طرده عن الخيرات، وعن منازل الملأ الأعلى كما طرده من رحمته وجنته[2].

ومعنى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضيرني في ديني أو دنياي أو يصدني من فعل ما أمرت به أو يحثني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤/٦٠٣.

(٢) راجع مفردات القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ١٩٠، ٢١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ص ٣٤٧.

يقول تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

يأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يستجير بالله من إغواء الشياطين ووسوستها المغرية على الباطل والفساد والصد عن الحق وأستجير بك يا رب من حضورهم في شيء من أموري، والأمر إلى كل مسلم بالتبعية بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم أي من دمغاته وطاقاته ومواهبه الخبيثة الماكرة[(١)].

ويقول تعالى في سورة فصلت: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤-٣٦].

قال ابن كثير بعد إيراده لهذه الآيات: «فهذه ثلاث آيات ليست لهن رابعة في معناها، وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة من العدو الشيطاني لا محالة، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل، ومن لطائف الاستعاذة أنها لطهارة الفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطييب له، وهو لتلاوة كتاب الله، وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على دفعه ومنعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصاحبة ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه، استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان»[(٢)].

---

(١) التفسير الميسر، ص ٣٤٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١/ ٢٥ - ٢٨.

والمواضع التي يستعاذ فيها بالله من الشيطان كثيرة، ومن ألزمها عند قراءة القرآن والصلاة، لأن الشيطان إن لم يستطع منع العبد منها وكفه عنهما، فإنه يشغله بالوساوس التي تجعله لا يفقه من قراءته شيئاً، وقد يدخل عليه الشبهات التي تزلزل إيمانه ويقينه[١].

ويقول ابن تيمية، رحمه الله تعالى: «الشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن، فأمر الله القارئ إذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه، فإن المستعيذ بالله من الشيطان الرجيم مستجير به، لاجئ إليه، مستغيث به من الشيطان، ويعرض للناس من الوساوس في الصلاة ما لا يعرض لهم إذا لم يصلوا، لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه، والتقرب إليه والاتصال به، فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم، ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة، ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم، ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم وتزيده يقيناً وطمأنينة وشفاء»[٢].

ومن شر الشيطان شر النفس، يقول الشيخ أبو الهلال: «فشر النفس نوعان: صفة وعمل، والعمل ينشأ عن الصفة، والصفة تتأكد وتقوى بالعمل، فكل منهما يمد الآخر، ولما كان الشر له مصدر يبتدئ منه وغاية ينتهي إليها، وكان مصدرها إما من نفس الإنسان وإما من الشيطان، وغايته أن يعود على صاحبه أو على أخيه المسلم»[٣].

---

(١) مكائد الشيطان ومسائل من فقه الكتاب والسنة د عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ص ١٠٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٧/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٣) مناظرات مع الشيطان، مناظرات أئمة السلف مع حزب إبليس، أبي أسامة سليم بن عبيد الهلالي، ط ابن الجزري ١٤١٤، ص ٢٣٤.

لذلك جاءت سورة الناس تتحدث عن التعوذ من شر وسواس الشيطان والنفس والتعوذ من شرار الناس، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من شر الوسواس: استعاذة من الوسواس الذي يعرض له والذي يعرض للناس بسببه، فقد وقي ظلمهم، وإن كان إنما يريد وسواسه ﴿مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ ما تحدث به نفسه، والشيطان تارة يحدث وسواس الشر وتارة ينشئ الخير بما يشغله به من حديث النفس[1].

وبهذا نكون قد عرفنا مكائد الشيطان وطرق الحيطة والحذر كما جاءت في القرآن الكريم، أعاذنا الله منه ومن شره.

(١) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية، الجزء الثاني، مكتبة محمد علي صبيح، مصر، ص ٢٠٨.

المحاضرة السابعة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم

تمهيد

إن واجب الدعوة لدين الله الحق يتطلب من المسلمين أن يأتمروا فيما بينهم بالمعروف وأن يتناهوا عن المنكر، وقد جعل الإسلام ذلك فرضاً من فروض الدين، وعنصراً من عناصر الحياة الطيبة، وأقسم الله تعالى بالعصر إن الإنسان لفي خسر لا يسلم من الخسران في هذه الحياة إلا إذا ضم إلى إيمانه وعمله الصالح التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهما عماد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قص علينا القرآن مصير الأولين الذين انحطت فيما بينهم الفضيلة، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى تركز البغي فيما بينهم، واستشرى الفساد في جميع شؤونهم.

وقد تلقى المسلمون الأولون هذا المبدأ العظيم، وعرفوا به مسؤوليتهم عن الناس، ومسؤولية بعضهم عن بعض، فدعوا غيرهم إلى الحق، وقاموا فيما بينهم بالنصح والإرشاد، وتقبل المنصوحون من الناصحين شاكرة ألسنتهم، مطمئنة قلوبهم، فاستقامت لهم الشؤون، وتقدمت بهم الحياة، وكانوا أقوياء أعزاء، يملون ولا يملى عليهم، ويقولون ويفعلون ما يقولون، وظلوا كذلك حتى نبتت فيهم جراثيم الهوى والشهوة، فأفسدت عليهم

تصورهم للحياة وظنوها مادة عليها يتنافسون، وأموالاً وجاهاً وملكاً بها يتفاخرون، فانحلت من بينهم الروابط، واندفعوا في طريق الجاهلية الأولى، يرون المنكر فيسكتون عنه، بل يدافع كل منهم عن سفهائه، ويتعصب لأوليائه ونسوا بذلك حبل الله فأنساهم الله أنفسهم، وسلط عليهم شرارهم وأعداءهم، وكاد يحل بهم ما حل بالأمم قبلهم، وتعرضوا للعذاب العظيم، وكتاب الله قائم بينهم، وناطق بالحجة عليهم، يحذرهم وينهاهم أن يسلكوا سبيل المفسدين، وأن يفعلوا كما فعل الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات[(١)].

المبحث الأول

مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم

إن مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مكانة عظيمة، وتستمد هذه المكانة بتقرير أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الأمة المسلمة في القرآن الكريم، كما أنه واجب عظيم يجعل المسلمين في مقدمة ركب الإنسانية يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٤].

وفي موضع آخر من ذات السورة:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠].

فلا بدَّ من جماعة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، لا بدَّ

---

(١) انظر تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى للإمام محمود شلتوت، طباعة دار الشروق، بيروت ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص١٣٦.

من سلطة في الأرض تدعو لهذا الأمر، فهناك أمر بالمعروف ونهي عن المنكر لا يقوم بهما إلا ذو سلطان، لا بد من سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر، وتحقيق هذا المنهج يقتضي (دعوة) إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج، ويقتضي سلطة (تأمر) بالمعروف (وتنهى) عن المنكر فتطاع، فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان فهذا شطر، أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي، على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذي هوى، وكل ذي شهوة، وكل ذي مصلحة، ولا تفلح الأمة، ولا تفلح البشرية، إلا أن يسود الخير، وإلا أن يكون المعروف معروفاً، والمنكر منكراً، وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى وتطاع وأولئك هم المفلحون، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ هذه الآية تضع على كاهل الجماعة المسلمة في الأرض واجباً ثقيلاً بقدر ما يكرم هذه الجماعة ويرفع مقامها ويفردها بمكان خاص لا تبلغ إليه جماعة أخرى، وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة، لتعرف حقيقتها وقيمتها، ولتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة وقائدة للخير لا للشر في هذه الأرض، وفي أول مقتضيات هذا المقام والمكان أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد، وأن تكون بها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي خير أمة أخرجت للناس[(١)].

ويقول تعالى مبيناً مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٧١].

---

(١) باختصار من تفسير الظلال، لسيد قطب ١/ ٤٤٣-٤٤٦.

ذكر الله صفات المؤمنين المحمودة ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ويطيعون الله ورسوله فيما أمر، ويتركون ما عنه زجر، سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، من أطاع الله أعزه(١).

ويقول تعالى في سورة الحج: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٤١].

الذين وعدناهم بنصرنا هم الذين إن مكناهم في الأرض واستخلفناهم فيها بإظهارهم على عدوهم، أقاموا الصلاة في أوقاتها، محافظين عليها، مداومين فيها، وأخرجوا زكاة أموالهم إلى أهلها، وأمروا بكل ما أمر الله به من حقوقه وحقوقه عباده، ونهوا عن كل ما نهى الله عنه، فلله وحده مصير الأمور كلها والعاقبة للتقوى.

وجاءت سورة العصر بآياتها الثلاث تبين أن الفاصل بين الخسران والنجاة هو الإيمان وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك من خلال التواصي بالحق على طاعة الله وصالح العمل، والصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله والصبر على الشدائد والبلاء ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١٠٣/ ١-٣].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤/ ١٧٥.

المبحث الثاني

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

نستعرض بعض الآيات التي تحدثت عن حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٤].

فهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا يهمل هذا الأمر الهام في حياة الأمة المسلمة.

ويقول تعالى في سورة التوبة: ﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٢].

جاء في تفسير القرآن العظيم لابن كثير قوله: «وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة، فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم، ويتفقهون في دينهم، ويقولون لنبي الله: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا ما نقول لعشائرنا إذا انطلقنا إليهم. قال: فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة، وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا: إن من أسلم فهو منا، ويُنذرونهم، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه، وكان رسول الله ﷺ يخبرهم وينذر قومهم فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة»[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٢٣٧.

إن حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض واجب، يقول ابن تيمية رحمه الله: «وكل بشر على وجه الأرض فلا بد له من أمر أو نهي، ولا بد أن يأمر وينهى، حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها أما بمعروف أو بمنكر، فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته، والنهي طلب الترك وإرادته، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر، وتناه عن أمر.. وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم، فمن يأمر بالمعروف الذي أمر به الله ورسوله، وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله، وإلا فلا بد أن يأمر وينهى ويُؤمر ويُنهى»[١].

وذهب جمهور العلماء إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من فروض الكفاية على جماعة المسلمين، وليس فرضاً عينياً على كل مسلم[٢].. إلا أن بعض العلماء ذهبوا إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين على كل مسلم على قدر استطاعته، ومن هؤلاء ابن حزم الظاهري، رحمه الله، فقد قال: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضان على كل واحد على قدر استطاعته باليد، فمن لم يقدر فبلسانه، فمن لم يقدر فبقلبه وذلك أضعف الإيمان، وليس وراء ذلك من الإيمان شيء»[٣].

والراجح هو القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوباً عينياً على كل مسلم بقدر استطاعته، وذلك أن سكوت المسلم عن إشاعة المعروف الذي يعرفه وتعليم أمور الدين للناس الجاهلين اعتماداً على أن غيره قد يقوم بذلك قد يؤدي إلى تفويت كثير من الخير على جماعة المسلمين، وكتمان العلم من الكبائر، وأما المنكر فالمطلوب إزالته إذا وقع، والحيلولة

(١) الحسبة في الإسلام لشيخ الإسلام ابن تيمية، طباعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ص١٠٢.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ٢/ ١١٨٧، والحسبة في الإسلام ص٦٣.

(٣) المحلى لابن حزم ١/ ٣٢.

دون وقوعه إذا علم العزم عليه، وهنا يجب على كل من رآه أو علم به أن يسارع إلى محاولة إزالته ومنع وقوعه ولا يجوز التقاعس عن ذلك ركوناً إلى الآخرين، إذ قد يؤدي ذلك إلى عدم الإنكار بالكلية، وفوات الأمر على غير وجه شرعي وتترب المسؤولية دون وقوع المنكر واستمراره بمجرد رؤيته، وإذا توجه غيره للنهي عن هذا المنكر فلا يسقط عنه وجوب النهي، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين على كل قادر عليهما[1].

المبحث الثالث

عواقب إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إذا ترك المسلمون واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن ذلك يجعلهم في سياق الأمم السابقة التي كانت لا تتناهى عن منكر فعلته مما جر عليها عواقب وخيمة، وحتى يقوم الناس بهذا الواجب الديني الهام فإننا نورد بعضاً من الآيات القرآنية التي بينت عاقبة إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٩].

التنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولاً أهل الكتاب، ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة يكتمون الحق الذي يعلمونه، ويشترون به ثمناً قليلاً حين يقاس إلى ما يخسرونه من رضا الله وثواب الآخرة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ تحولوا إلى ملعنة

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبو بكر الخلال، والجهاد للدكتور محمد نعيم ياسين ص١٧٩.

ينصب عليها اللعن من كل مصدر، ويتوجه إليها بعد الله من كل لاعن، واللعن: الطرد في غضب وزجر، وأولئك يلعنهم الله ويطردهم من رحمته، ويطاردهم اللاعنون من كل صوب فهم هكذا مطاردون من الله ومن عباده في كل مكان[1].

ويقول تعالى في سورة المائدة: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٧٨-٨٠].

يخبر تعالى أنه طرد من رحمته الكافرين من بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزله على داوود، عليه السلام، وهو الزبور، وفي الكتاب الذي أنزله على عيسى، عليه السلام، وهو الإنجيل بسبب عصيانهم واعتدائهم على حرمات الله، كان هؤلاء اليهود يجاهرون بالمعاصي ويرضونها، ولا ينهى بعضهم بعضاً عن أي منكر فعلوه، وهذا من أفعالهم السيئة، وبه استحقوا أن يطردوا من رحمة الله تعالى، ترى كثيراً من هؤلاء اليهود - والخطاب للرسول ﷺ - يتخذون المشركين أولياء لهم، ساء ما عملوه من الموالاة التي كانت سبباً في غضب الله عليهم وخلودهم في عذاب الله يوم القيامة[2].

ويقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٥].

---

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٥٠.

(٢) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، مجمع الملك فهد، ص١٢١.

فلما نسوا ما ذكروا به وتركوه عن قصد أخذهم الله بعذاب شديد رديء، لأنهم تركوا ما ذكروا به واعتدوا واستمروا على غيهم، ولم يستجيبوا للذكر والوعظ، وأنجى الله الذين ينهون عن معصيته وأخذ الذين اعتدوا بعذاب أليم شديد بسبب مخالفتهم الله وخروجهم عن طاعته سبحانه وتعالى[١].

ويقول تعالى في سورة هود: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود: ١١/١١٦].

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض؟ وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمه، ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يتلفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب وكانوا مجرمين[٢].

إن عواقب إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخيمة وعصيبة ومهلكة، لذا فإنه يجب على المسلمين أفراداً وجماعات وحكومات أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً من عواقب إهماله وتركه. والله نسأل أن يوفق القائمين على أمر المسلمين في كل مكان أن يحذوا حذو نظام هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المملكة العربية السعودية،

---

(١) انظر تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٢٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٣٦١.

حتى تنشط المسلمين في كل مكان بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الرابع

الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر

هنالك مجموعة من الصفات التي يجب أن يتصف بها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر حتى يكون أهلاً لهذه المهمة العظيمة، ومن هذه الصفات:

أولاً - العلم

فالعلم هو أساس كل شيء، فلا بد للداعية لهذا الأمر أن يكون عالماً بما يأمر به الناس وينهاهم عنه، حتى يدعو إليه على بصيرة وعلم كما تقدم لنا في آية سورة التوبة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة النحل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥].

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، لأن الله قد علم منهم الشقي والسعيد، فادعهم إلى الله الهادي من يهديه والضال من يضله[1].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٦١٣.

ثانياً - العمل بما يقول

لا بد من أن يتبع الداعية القول العمل، فلا يمكن أن ننهى الناس عن شيء ثم نفعله، أو نأمر الناس بشيء لا نفعله، فهذا لا يستقيم أبداً في أمر الدعوة إلى دين الله تعالى.

يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٤٤].

إن الدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم ولكن في الدعوات ذاتها، وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم، لأنهم يسمعون قولاً جميلاً، ويشهدون فعلاً قبيحاً، والمطابقة بين القول والفعل وبين العقيدة والسلوك ليست أمراً هيناً إنها في حاجة إلى جهد مع النفس وصلة بالله واستعانة بهديه في تطابق قوله عمله[1].

ونبي الله شعيب، عليه السلام، دعا قومه موضحاً لهم أنه على أمر واضح من الله تعالى فيما يدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله، وفيما ينهاهم عن الفساد في المال، فهو لا يريد أن يخالفهم فيرتكب أمراً نهاهم عنه، وما يريد من الأمر والنهي إلا إصلاحهم فهو يعاهدهم على القول والعمل فيما يأمر وينهى متوكلاً على الله تعالى تائباً راجعاً إليه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ١١/ ٨٨].

ويقول تعالى في سورة فصلت: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٣].

---

(١) باختصار من ظلال القرآن، لسيد قطب ١/ ٦٨.

لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى توحيد الله وعبادته وحده وعمل صالحاً وقال: إنني من المسلمين المنقادين لأمر الله وشرعه، وفي الآية حث على الدعوة إلى الله سبحانه وبيان فضل العلماء الداعين إليه على بصيرة وفق ما جاء عن رسول الله ﷺ[(١)].

وينكر الله سبحانه وتعالى على من يَعِدُ عدة أو يقول قولاً لا يفي به، وهو من أعظم ما يبغض الله تعالى، وهو أن يقول الإنسان ما لا يفعل، يقول تعالى في سورة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٦١/ ٢-٣].

وهنا يجدر بنا أن نذكر قول الشاعر في هذا المقام:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلاّ لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا ... كيما يصح به وأنت سقيم

ابدأ بنفسك وانهها عن غيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم[(٢)]

ثالثاً - الصبر

لا بدَّ للداعية أن يتصف بصفة الصبر حتى تكون له معيناً فيما يأمر وينهى، فقد يجد في سبيل ذلك الأذى من الناس قولاً وفعلاً، لأن هذا الطريق مليء بالتحديات والصعاب، فلا بد من جرعات الصبر حتى يمضي

---

(١) التفسير الميسر، ص٤٨٠.

(٢) أورد هذه الأبيات صاحب قطر الندى في شواهده النحوية، باب لا الناهية والنواصب، ص١٠٠.

المؤمن في طريق دعوته صابراً محتسباً أجره على الله، وفي هذا يقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٤].

لقد صبر الرسل الذين أرسلهم الله قبل محمد ﷺ على الأذى في سبيل الله، ومضوا في دعوتهم وجهادهم حتى أتاهم نصر الله، ولا مبدل لكلمات الله التي أنزلها على نبيه محمد ﷺ من الوعد بالنصر على من عاداه، ولقد جاء خبر نصر الله لرسله السابقين، وما أصاب مكذبيهم من العذاب، فهم أي رسل الله جميعاً الأسوة والقدوة لكل داعية إلى الله تعالى.

ولقد وصى لقمان ابنه بالصبر في طاعة الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن ما يصيبه في سبيل ذلك هو من الأمور التي ينبغي أن يحرص عليها الإنسان ﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ١٧].

وتأتي سورة العصر على إيجازها في التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

رابعاً - الرفق واللين

إن الرفق واللين ما دخلا على شيء إلا زاناه ولا خرجا من شيء إلا شاناه، فلا بد للداعية أن يرفق بمن يدعوه إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يكون لين الجانب وهو ينهى الناس عن معصية الله سبحانه وتعالى، لا فظاً غليظ القلب ينفر الناس من حوله، فالأمر يحتاج إلى رفق ولين.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥].

ويقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ

ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٣].

لابد من المخاطبة والمحاورة بالكلام الحسن الطيب، حتى يقفلوا على الشيطان طريق العداوة والفساد والخصام، لأن الشيطان للإنسان عدو مبين ظاهر العداوة.

ويقول تعالى في سورة طه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٤٤].

أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون بآيات الله الدالة على ألوهيته وكمال قدرته وصدق رسالته أن يذهبا إلى فرعون المتجاوز الحد في الكفر والظلم، وعلى الرغم من ذلك، فقولا له قولاً لطيفاً لعله يتذكر أو يخاف الله[(١)].

خامساً - التيسير والتبشير

يقول تعالى في سورة النساء: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٤/ ٢٧-٢٨].

يريد الله تعالى أن يتوب علينا ويتجاوز عن خطايانا، ويريد الذين ينقادون لشهواتهم أن ننحرف عن الدين انحرافاً كبيراً، الله يريد اليسر بالمغفرة، وهم يريدون العسر بالمعصية، ويريد الله تعالى بما شرعه لنا التيسير وعدم التشديد علينا، لأن الله خلقنا ضعفاء، فمن هنا لا بد أن نيسر أمر الدين وأن نكون ليني الجانب ونحن ندعو الناس للتمسك بدين الله تعالى.

يقول تعالى في سورة الزمر: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ

---

(١) التفسير الميسر، ص٣١٤.

لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣].

ويقول تعالى في السورة ذاتها: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٥].

جاء في تفسير هاتين الآيتين: «قل يا محمد لعبادي الذين تمادوا في المعاصي، وأسرفوا على أنفسهم بالذنوب: لا تيئسوا من رحمة الله، لكثرة ذنوبكم، إن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها مهما كانت، إنه هو الغفور لذنوب التائبين من عباده الرحيم بهم، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم، وهو القرآن العظيم، وكله حسن، فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه، من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة وأنتم لا تعلمون به»[(١)].

في هذا تيسير وتبشير لعباد الله سبحانه وتعالى، يسر في التكليف، وتبشير بالمغفرة لمن قصر وعصى، فلا بد للدعاة أن يتخذوا هذا المنهج القويم، وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حتى يستجيب المدعو من الناس لدعوتهم.

غير أن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف أمام المستجيبين للشياطين، من الظالمين والفاسقين وإعادتهم إلى حظيرة الطاعة لله بوسائل اللين والشدة، كل ذلك يوقف من المد الشيطاني، ويقلل من معصية الله وأهلها في مجتمع الإيمان، وينجي هذا المجتمع من غضب الله والفتن العامة الطامة التي لا ينجو منها إلا الذين ينهون عن السوء ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فمن لا ينهى عن السوء لا ينجيه مجرد إيمانه

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٢٦١، طبعة دار المعرفة بيروت.

وقيامه ببعض الطاعات عند حلول الفتن والمصائب، ولكن الذي ينجيه هو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بعد إيمانه وطاعته لربه[١].

لهذا كله كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم قواعد الإسلام، ومن أكثر ما ذكر في القرآن والسنة من الواجبات بالحث عليه والوعد لمن قام به بخير الجزاء، والوعيد لمن تركه وتهاون فيه، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم خصال الإيمان، وقد رغب القرآن للقيام به في كثير من آياته في دلالة واضحة لفلاح من قام به.

(١) انظر الجهاد ميادينه وأساليبه للدكتور محمد نعيم ياسين، طباعة مكتبة الأقصى الأردن، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٦٥.

المحاضرة الثامنة

الجهاد في سبيل الله في القرآن الكريم

تعريف الجهاد

يقول ابن منظور: «وجاهد العدو مجاهدة وجهاداً قاتله وجاهد في سبيل الله، وفي الحديث: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»، الجهاد محاربة الأعداء، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل. والمراد بالنية إخلاص العمل لله أي: إنه لم يبق بعد فتح مكة هجرة، لأنها قد صارت دار إسلام، وإنما هو الإخلاص في الجهاد وقتال الكفار والجهاد المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء»[1]

وقال القسطلاني: «والجهاد، بكسر الجيم، مصدر جاهدت العدو مجاهدة وجهاداً، وأصله جيهاد كقيتال فخفف بحذف الياء، وهو مشتق من الجَهْد، بفتح الجيم، وهو التعب والمشقة لما فيه من ارتكابها أو الجُهد، بالضم، وهو الطاقة لأن كل واحد منهما بذل طاقته في دفع صاحبه[2].

وأما تعريف الجهاد في الشرع فهو قتال الكفار لإعلاء كلمة الله والمعاونة على ذلك.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٣/ ١٣٥.

(٢) إرشاد الساري للقسطلاني ٥/ ٣١.

يعرف المالكية والشافعية الجهاد على أنه قتال الكفار حتى يسلموا، ويعرف الحنفية الجهاد: جهاد الكفار دعوتهم إلى الدين الإسلامي وقتالهم إن لم يقبلوا.

أما الحنابلة فيعرفونه بالمبالغة في قتال العدو، فهو قتال الكفار على وجه الخصوص.

ويعرفه غيرهم بقوله: أن الجهاد طلب العدو وقتاله حتى يسلم وينقاد للحق ويؤمن بالله ورسوله.

ومن هذه التعاريف يظهر لنا أن المعنى اللغوي يشترك مع المعنى الاصطلاحي في بذل الوسع والطاقة، فالجهاد هو بذل الوسع في نصرة الدين الإسلامي لا غير، وحفظه إما بالدعوة وتوضيح الحق وبعد ذلك يكون بالسيف، ويتبين لنا بعد استعراض المعنى اللغوي والاصطلاحي للجهاد أن اللغة أوسع تعريفاً من الاصطلاح وأشمل في دائرة الموازنة بينهما، والجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين[1].

حكم الجهاد

الجهاد نوعان:

١- جهاد الطلب والابتداء، وهو تطلب الكفار في عقر دارهم، ودعوتهم إلى الإسلام، وقتالهم إذا لم يقبلوا الخضوع لحكم الإسلام، وحكم هذا النوع فرض على مجموع المسلمين.

---

(١) الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع، للشيخ صالح اللحيدان، طباعة دار اللواء، الرياض، ١٣٩٧هـ، ص١٧.

٢- جهاد الدفاع، وحكمه فرض عين على جميع المسلمين عموماً حتى يندفع شر الأعداء، وهذا بإجماع علماء الإسلام(١).

وعليه فإن الجهاد يكون فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ويكون فرض عين إذا هجم العدو على ديار المسلمين، وإذا استنفر إمام المسلمين الأمة للجهاد في سبيل الله(٢).

المبحث الأول

فضل الجهاد والمجاهدين في القرآن الكريم

يقول تعالى في سورة النساء مبيناً فضل الجهاد والمجاهدين: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ٩٥].

لا يتساوى المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله غير أصحاب الأعذار منهم والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله تعالى المجاهدين على القاعدين، ورفع منزلتهم درجة عالية في الجنة، وقد وعد الله كلاً من المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والقاعدين من أهل الأعذار الجنة، لما بذلوا وضحوا في سبيل الحق، وفضل الله تعالى المجاهدين على القاعدين ثواباً جزيلاً(٣).

ويقول تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ

(١) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، د. علي بن نفيع العلياني، طباعة دار طيبة، الرياض، ١٤١٦هـ، ص١٢٤.

(٢) راجع المرجع السابق ص٣٠ وما بعدها.

(٣) التفسير الميسر ص ٩٤.

فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ١٢].

من فضل الله على المجاهدين أنه تعالى معهم ينصرهم ويعينهم عن طريق الملائكة الذين يبشرونهم بالنصر والقتال معهم، فكان المَلَكُ يسير أمام الصف في صورة الرجل ويقول: سيروا فإن الله ناصركم. ويظن المسلمون أنه منهم، وأمر الله المؤمنين - وقيل: الملائكة - أن يضربوا فوق الأعناق وأن يضربوا منهم كل بنان، وهي الأصابع وغيرها من الأعضاء، وهو عبارة عن الثبات في الحرب وموضع الضرب، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء، والبنان هي أصابع اليدين والرجلين، والبنان هو كل مفصل(١).

ويقول تعالى في سورة التوبة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٣٨-٣٩].

يا أيها الذين آمنوا وصدقوا واتبعوا رسوله ما لكم إذا قيل لكم: اخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله لقتال أعدائكم. تكاسلتم ولزمتم مساكنكم؟ هل آثرتم الحظوظ الدنيوية على نعيم الآخرة؟ فما تستمتعون به في الدنيا قليل زائل، أما نعيم الآخرة الذي أعده الله للمؤمنين المجاهدين فكثير دائم، إلا تنفروا - أيها المؤمنون - إلى قتال عدوكم ينزل الله عقوبته بكم، ويأتي بقوم آخرين ينفرون إذا استُنفروا، ويطيعون الله ورسوله، ولن تضروا الله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٣٣٢.

شيئاً بتوليكم عن الجهاد فهو الغني عنكم وأنتم الفقراء إليه، وما يريده الله يكون لا محالة، والله على كل شيء قدير من نصر دينه ونبيه دونكم[(١)].

ويقول تعالى في فضل المجاهدين في سبيله الذين باعوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة: ٩/ ١١١].

الشراء والبيع عبارة عن عقد معاوضة، المشتري يدفع والبائع يعطي، فالمؤمنون باعوا أنفسهم لله في مقابل الجنة، لأنهم جاهدوا أعلاء لكلمة الله وإظهاراً لدينه، قتلوا الأعداء، وقتلوهم في سبيل الله، وهذا هو الوعد الحق في الكتب السماوية المنزلة على موسى، عليه السلام، وعيسى، عليه السلام، ومحمد ﷺ، ولا أحد أوفى بعهده من الله لمن وفى بما عاهد الله عليه، وهذا يدخل السرور في نفوس المؤمنين الذين باعوا وربحوا البيع جنات ورضوان، وهذا البيع هو الفلاح العظيم الذي ليس بعده فلاح.

ويقول تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٩].

والمؤمنون الذين جاهدوا أعداء الله والنفس والشيطان، وصبروا على الفتن والأذى في سبيل الله، سيهديهم الله سبل الخير ويثبتهم على الصراط المستقيم، ومن هذه صفته فهو محسن إلى نفسه وإلى غيره، وإن الله سبحانه وتعالى يؤيدهم بالنصر والتأييد والحفظ والهداية.

---

(١) التفسير الميسر ص١٩٣.

المبحث الثاني

أهداف القتال في القرآن الكريم

يبين الحق تبارك وتعالى أهداف القتال في القرآن الكريم فيقول: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠].

ويقول في موضع آخر من السورة ذاتها: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٤].

يقول سيد قطب:

إنه القتال لله، لا لأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة، القتال في سبيل الله، لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء الأرضي، ولا في سبيل المغانم والمكاسب، ولا في سبيل الأسواق والخامات، ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس، إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة والتي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام، القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض، وإقرار منهجه في الحياة، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم، أو أن يجرفهم الضلال والفساد، وما عدا هذا فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام، ومع تحديد الهدف تحديد المدى ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ والعدوان يكون بتجاوز المحاربين إلى غير المحاربين من الآمنين المسالمين من النساء والأطفال والشيوخ، وهو ما يعرف في عصرنا الحاضر بمصطلح المدنيين، فهؤلاء لا يشكلون خطراً على الدعوة الإسلامية ولا على الأمة الإسلامية، ثم بين الله حكم القتال في الأشهر

الحرم كما بين حكمه عند المسجد الحرام، فالذي ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يحرم الضمانات التي يكفلها له الشهر الحرام، وقد جعل الله البيت الحرام واحة للأمن والسلام في المكان، والأشهر الحرام واحة للأمن والسلام في الزمان، تصان فيه الحرمات والدماء والأموال، والذي ينتهك الحرمات لا تصان حرماته، فالحرمات قصاص بلا تجاوز ولا مغالاة، والمسلمون موكولون في هذا إلى تقواهم لأنهم يعلمون أنما ينصرون بعون الله، وقد ينسون ذلك فيذكرهم هنا أن الله مع المتقين بعد أمرهم بالتقوى[١].

ويقول تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٨/٥٨].

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه إذا خفتم نقض العهود والمواثيق التي بينكم وبين المشركين ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم، أعلمهم بأنك يا محمد قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينكم وبينهم على السواء، لأن الله لا يحب الخائنين الذين يبادرون بنقض العهود والمواثيق، فيكون في أهداف القتال خيانة العهد من الكفار[٢].

ويقول تعالى في سورة التوبة مبيناً أهداف القتال في كتابه العزيز: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٩/٢٩].

لقد كفر أهل الكتاب بكل شيء، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما

---

(١) باختصار من ظلال القرآن، لسيد قطب، ١/١٨٧-١٩١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٧٧.

هم فيه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ، وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر لقتال أهل الكتاب، بعد أن مكن الله الدين لنبيه، وكان ذلك في سنة تسع هجرية، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وجوزت الآية قتالهم حتى يدفعوا الجزية إن لم يسلموا ﴿عَن يَدٍ﴾ يعني عن قهر لهم وغلبة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين[1]، ويكون من أهداف القتال في الإسلام كسر شوكة الكفار من أهل الكتاب ونشر دين الله.

يبين الحق تبارك وتعالى عدد شهور السنة أن منها أربعة حرم، حرم الله فيهن القتال هي «ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب» والظلم فيها أشد من غيرها كما يجب قتال المشركين جميعاً مع العلم بأن الله مع أهل التقوى بتأييده ونصره يقول تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: ٩/٣٦]. ومن أهداف القتال في الإسلام مقاتلة الكفار الأقرب فالأقرب، حتى تأمن الدولة الإسلامية، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ٩/١٢٣].

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأول، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤/ ١٣٢ وما بعدها.

واليمامة وهجر، وخيبر، وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وليجد الكفار من قتالكم لهم شدة وغلظة، ولا بد من مقاتلة الكفار بعد التوكل على الله، والثقة في نصره وطاعته حتى يكونوا ظاهرين على عدوهم(١).

إن ظلم الأعداء الكافرين واستبدادهم ومحاولتهم إبادة المسلمين من الوجود من أهم الأهداف التي شرع الله من أجلها قتال الكافرين، وقد أذن الله للمسلمين في صدر الإسلام بعد طول صبر على أذى الكفار، حتى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة التي قويت فيها شوكته ونصره الله بالمهاجرين والأنصار وأصبحوا قوة تستطيع الدفاع عن عقيدتها وأرواحها ودمائها ووجودها أذن الله لهم بالقتال، فكانت معركة بدر الكبرى المعركة التي سماها الله الفرقان، لأنها فرقت بين الحق والباطل الذي انهزم بكثرته أمام قلة الحق المؤمنة الصابرة المقاتلة، عندها استحقوا نصر الله القوي العزيز القادر على نصرهم قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٢٢/٣٩].

يقول الدكتور علي العلياني متحدثاً عن أهداف الجهاد وغايته: الهدف الرئيسي هو تعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية إلى رب العباد، وإزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، وإخلاء العالم من الفساد. إن الجهاد الإسلامي الأكبر هو إرجاع البشر إلى الأصل وهو الملة الحنيفية التي تخضعهم لرب العالمين، وتجعلهم يستمدون منه سبحانه منهج حياتهم الدنيا، يعبدونه كما أمر، ولا يعبدون أحداً غيره،

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤/٢٣٨.

وهذا الخضوع لله هو الذي يحقق لهم السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة[١].

يقول محمد بن الحسن: «فرضية القتال المقصود منها إعزاز الدين وقهر المشركين»[٢].

ويقول ابن القيم في أهداف الجهاد: «والمقصود من الجهاد إنما هو أن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، فإن من كون الدين كله لله إذلال الكفر وأهله وصغاره، وضرب الجزية على رؤوس أهله، والرق على رقابهم، فهذا من دين الله ولا يناقض هذا إلا ترك الكفار على عزهم وإقامة دينهم كما يحبون بحيث تكون لهم الشوكة والكلمة»[٣].

ويقول الإمام الشافعي في كتابه الأم: إن فرض الجهاد يجمع أمرين: أحدهما أن يكون بإزاء العدو المخوف على المسلمين من يمنعه، والآخر أن يجاهد من المسلمين من في جهاده كفاية حتى يسلم أهل الأوثان أو يعطي أهل الكتاب الجزية[٤].

ويقول سيد قطب: «إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة الإسلام ذاته، ودوره في هذه الأرض، وأهدافه العليا التي قررها الله، وذكر الله أنه أرسل هذا الرسول بهذه الرسالة من أجلها، وجعله خاتم النبيين، وجعلها خاتمة الرسالات، إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد، ومن العبودية لهواه، وذلك بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته سبحانه للعالمين، ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج، لأنه وحده المنهج المبرأ من نتائج الجهل الإنساني والقصور

---

(١) أهمية الجهاد، د علي بن نفيع العلياني، ص١٥٨.

(٢) السير الكبير للشيباني، ١/ ٨٨.

(٣) أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، ١/ ١٨.

(٤) كتاب الأم للإمام الشافعي، ط دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٢هـ، ٤/ ١٦٧.

الإنساني، فواضعه هو خالق الإنسان العليم بما يصلح له، المطلع على خفايا تكوينه وتركيبه»[(١)].

ومن هنا يمكن أن نلخص أهداف القتال في القرآن الكريم بعد استعراضنا للآيات التي تحدثت عن تلك الأهداف وأقوال العلماء في ذلك في الآتي:

١- رد اعتداء المعتدين على المسلمين.

٢- إزالة الفتنة عن الناس حتى يستمعوا إلى دلائل التوحيد من غير عائق والفتنة تلك تتلخص في ثلاثة أنواع، النوع الأول ما يمارسه الكفار من أشكال التعذيب والتضييق على المسلمين ليرتدوا عن دينهم، والنوع الثاني هو الأوضاع والأنظمة الشركية وما ينتج عنها من فساد في شتى مجالات الحياة، والنوع الثالث: فتنة الكفار أنفسهم وصدهم عن استماع الحق وقبوله.

٣- حماية الدولة الإسلامية من شر الكفار وحماية ديارهم في أي بقعة من الأرض كانت.

٤- قتل الكافرين وإبادتهم ومحقهم حتى لا يعلو شأنهم وتفسد بهم المجتمعات البشرية.

٥- إرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم وإيهان كيدهم وإغاظتهم.

ويلخص الدكتور الألمعي أهداف الجهاد في سبيل الله بقوله: «إعلاء كلمة الله في الأرض، وإقامة الحق والعدل بين الناس، وجعل الحاكمية لله وحده، فلا يحكم إلا بشريعته، ولهذا لا يكاد يذكر القتال أو الجهاد إلا مقروناً بسبيل الله، تفريقاً بينه وبين القتال من أجل الثأر والأطماع الدنيوية وحب السيطرة والاستعباد، إن من أهداف الإسلام إسعاد البشرية

(١) هذا الدين، سيد قطب، طباعة دار الشروق، بيروت، ص١٥.

وهدايتها، ونشر الأمن والرخاء فوق ربوعها، ولا يلجأ للقتال إلا للضرورة[١].

وللجهاد فوائد عظيمة للمسلمين إذا مارسوا الجهاد، من تلك الفوائد:

أ- كشف المنافقين المندسين في صفوف المسلمين، فأكبر كاشف لدخيلتهم وسرائرهم هو الجهاد في سبيله.

ب- تمحيص المؤمنين من ذنوبهم، فإن المجاهد المسلم إذا أخلص النية لله وحضر القتال فقتل الكافر نال ثواباً عظيماً، وإذا قتله الكفار فذلك الفوز الذي لا يعدله فوز.

ج- تربية المؤمنين على الصبر والثبات والطاعة وبذل النفس.

د- الحصول على الغنائم والسبي وإن لها لموقعاً في النفس البشرية.

ومما تقدم يتضح لنا غاية الجهاد، والتي هي إسلام أهل الأرض كلهم واعتناقهم الإسلام من غير أهل الكتاب والمجوس، وبهذا يظهر أن الجهاد مستمر إلى قيام الساعة وأنه لا ينتهي جهاد الكفار إلا إذا أسلموا، أو خضعوا لحكم الإسلام ودفعوا الجزية حال كونهم متلبسين بالذل والصغار.

المبحث الثالث

فضل الشهداء

لقد فضل الله المجاهدين في سبيله فضلاً عظيماً، وفضل من المجاهدين في سبيله الشهداء الذين يُقتلون في سبيله سبحانه، ومن فضل الشهيد أنه حي ولا ينبغي أن نسميه أو نصفه بالموت، فهو حي حياة خاصة في قبره، لا

(١) دراسات في التفسير، د. زاهر الألمعي، ص٣٣٤.

يعلم كيفيتها إلا الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٤].

ويقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٩].

الآية نص في النهي عن حسبان أن الذين قُتلوا في سبيل الله وفارقوا هذه الحياة وبعدوا عن أعين الناس أمواتاً، ونص كذلك في إثبات أنهم أحياء عند ربهم، ثم يلي هذا النهي وهذا الإثبات وصف ما لهم من خصائص الحياة فهم يرزقون، مع أننا في هذه الفانية لا نعرف نوع الحياة التي يحياها الشهداء إلا ما يبلغنا من وصفها في الأحاديث الصحاح، إلا أن هذا النص كفيل وحده بأن يغير مفاهيمنا للموت والحياة، لأن الذين يقتلون في سبيل الله متجردين من أعراض وأغراض الدنيا، يخبرنا الله سبحانه أنهم ليسوا أمواتاً، وينهانا أن نحسبهم كذلك، ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده يرزقون(1).

ويقول تعالى في سورة النساء آمراً سبحانه عباده المؤمنين بالجهاد في سبيل نصرة دينه وإعلاء كلمته الذين يبيعون الدنيا بزخرفها الزائل بالآخرة ونعيمها الدائم، ومن يجاهد في سبيل الله مخلصاً فينال الشهادة في سبيله قتيلاً، فإن الله سيؤتيه فضلاً كبيراً وأجراً عظيماً: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء: ٤/ ٧٤].

ويقول تعالى في فضل الشهداء في سورة محمد: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٤-٦].

---

(1) انظر في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، ١/ ٥١٨.

إن الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين ومداولة الأيام بينهم، ولو يشاء الله لانتصر للمؤمنين من الكافرين بغير قتال، ولكن شرع الله الجهاد ليختبر المؤمنين، ولينصر بهم دينه، والذين قتلوا في سبيل الله من المؤمنين، فلن يبطل الله ثواب أعمالهم، سيوفقهم إلى طاعته ومرضاته ويصلح شأنهم في الدنيا والآخرة ويدخلهم الجنة بينها وعرفها لهم[١].

وقد بينت السنة النبوية العطرة مرتبة الشهيد وهي الينبوع في تفسير كتاب الله تعالى، فقد جاء في الصحاح الكثير عن المجاهدين والشهداء في سبيل الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك»[٢].

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[٣].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين»[٤].

وعن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ الآية، فقال: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت[٥]..

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المجاهدين في سبيله، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله آمين.

---

(١) التفسير الميسر ص٥٠٧.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ٢٠٤.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ٢٠٨.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٣/ ٣٠.

(٥) صحيح مسلم، شرح النووي، ١٣/ ٣١.

المحاضرة التاسعة

الصلاة في القرآن الكريم

الصلاة أهم أركان الإسلام، بعد النطق بالشهادتين، وهي عماد الدين وأساسه الأصيل، الذي لا يقوم البنيان من دونه، والحاجز بين الإنسان ووقوعه في الكفر هو الصلاة، فمن تركها فقد وقع في هوة الكفر، وانسلخ من ربقة الإيمان، وتجب الصلاة على المسلم البالغ العاقل حين دخول وقتها، وأن تكون المرأة طاهرة من الحيض والنفاس.

المبحث الأول

أدلة فرضيتها في القرآن الكريم

يقول تعالى مبيناً فرضية الصلاة في كتابه العزيز: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٤٣].

وهذه الآية تشير بوضوح إلى أن الدخول في الإسلام يكون بإقامة الصلاة بعد النطق بالشهادتين، إقامتها على الوجه الصحيح كما جاء بها نبي الله ورسوله محمد ﷺ، وتكونوا مع الراكعين من أمته ﷺ[1].

ويقول تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ

(١) التفسير الميسر، ص٧.

وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٤/ ٧٧].

ويقول تعالى في السورة ذاتها: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٠٣].

في الآيات السابقة تكليف للمؤمنين بالصلاة حتى في وقت الحرب والاشتغال بقتال الأعداء، وفي حالة ترقب الموت، دليل واضح على أهمية هذا الواجب في تزكية النفوس، وفي الحصول على رضا الله، ولا ريب أن الصلاة وهي مناجاة بين العبد وربه، تبعث على مراقبة الله، واستشعار عظمته، وتجعل الإنسان في حذر دائم من مخالفة أحكامه، أو التقصير في حدوده، وبذلك يكمل للروح تهذيبها، وللنفس قوتها وصلاحها، وحسب المؤمنين في العناية بها أنها الركن الأول من أركان الدين بعد شهادة التوحيد والرسالة[١].

ويأمر الله النبي الكريم محمداً ﷺ بأداء الصلاة على أتم وجه طرفي النهار في الصباح والمساء وفي ساعات الليل، لأن فعل الخيرات يكفر الذنوب ويمحو آثارها، والأمر بإقامة الصلاة وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات موعظة بليغة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١/ ١١٤].

ويقول تعالى مبيناً فرضية الصلاة في سورة إبراهيم: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣١].

(١) تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت، ص٢٥٦.

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقول تعالى آمراً العباد بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها(١).

ويأمر الله تعالى بإقامة الصلاة تامة من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل، ويدخل في هذا صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، كما يأمر بإقامة صلاة الفجر، لأن صلاة الفجر يشهدها الملائكة المقربون فلا بد من إطالة القراءة فيها ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٧٨].

ويقول تعالى في سورة الحج ذاكراً الجهاد مع إقامة الصلاة والزكاة: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٢٢/٧٨].

فالآية الكريمة تشير إلى المحافظة على معالم الدين وأركانه بأداء الصلاة بأركانها وشروطها، وإخراج الزكاة المفروضة، ويأمرنا الله أن نلجأ إليه ونتوكل عليه، فهو نعم المولى لمن تولاه ونعم النصير لمن استنصره.

ويقول تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٥].

ويبين الحق تبارك وتعالى فرضية صلاة الجمعة في كتابه العزيز فيقول:

---

(١) تفسير القرآن الكريم لابن كثير، ٤/ ٥١٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٩].

والمراد بالنداء هنا النداء الثاني الذي يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه، وأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنما كان لكثرة الناس، وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون النساء والصبيان، ويعذر المسافر والمريض وأصحاب الأعذار، ويحرم البيع بعد النداء الثاني، وفي ترك البيع والإقبال إلى ذكر الله والصلاة خير لنا في الدنيا والآخرة[(١)].

ويبين الشيخ الصابوني فرضية صلاة الجمعة بقوله: «فرض الله صلاة الجمعة في كل أسبوع مرة واحدة ليسرع كل مسلم إلى الصلاة، يستمع كلام الله، وحديث المصطفى ﷺ وموعظة الخطيب، فيكون له زاداً إيمانياً، ويجتمع بإخوانه المؤمنين في ذلك الجمع المبارك، فيتفقد غائبهم، ويعين محتاجهم، ويعود مريضهم، ويصالح المختصمين، ويبذل نصحه للمقصرين، كما يتعلم الآداب الرفيعة في الاجتماع من السلام والاحترام والبشاشة التي تجعل المجتمع في سلام وأمان، لهذا كله فرض الله سبحانه وتعالى صلاة الجمعة على كل مسلم وأمره أن يسعى إليها وحثه على أدائها[(٢)].

وقد كانت فرضية الصلاة من العبادات المشتركة بين الأديان السماوية، فقد أمر الله عباده في كل حين بأداء الصلاة وإيتاء الزكاة وجعلها من أركان كل دين، لأن الصلاة هي العبادة التي تصل العبد بربه سبحانه وتعالى، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٩٨/ ٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٨/ ١٢٢.

(٢) أحكام الصلاة والطهارة للشيخ محمد علي الصابوني، ط دار القرآن الكريم، بيروت ١٤١٨هـ، ص٢٣٠.

المبحث الثاني

منزلة الصلاة في القرآن الكريم

يقول تعالى في سورة البقرة عن منزلة الصلاة في ثلاثة مواضع من هذه السورة الكريمة: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٤٥].

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١١٠].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٣].

الاستعانة بالصبر تكرر كثيراً فهو الزاد الذي لا بد منه لمواجهة كل مشقة، والصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب، صلة يستمد منها القلب القوة، وتحس فيها الروح صلة، وتجد فيها النفس الزاد، ويتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيراً ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات، ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر، فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد، المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب، ثم يضيف إلى الصبر الرضى والطمأنينة والثقة واليقين[١].

إن المداومة على أداء الصلاة في وقتها المعلوم، وهيئتها المشروعة، الواردة عن النبي ﷺ، تكسب العبد صفة الإيمان، وتجعله من الوارثين

(١) ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٦٤، ١٤١.

لأعلى منازل الجنة، فالذين هم فيها لا ينقطع نعيمهم ولا يزول ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ٢٣/٩-١١].

كما بين الحق سبحانه وتعالى منزلة الصلاة ومكانتها العظيمة في سورة العنكبوت: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٥].

ويقول تعالى في سورة الأعلى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٤-١٥].

قد طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة وتابع ما أنزل الله على رسوله ﷺ وأقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله، وطاعة لأمره وامتثالاً لشرعه[١].

المبحث الثالث

الخشوع في الصلاة

إن الخشوع في الصلاة شرط من شروط صحتها، وركن من أهم أركانها، وصفة إيمانية عظيمة، يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: ٢/٢٣٨].

والأمر هنا بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين، فلا بد من إقامتها في أوقاتها، وإقامتها صحيحة الأركان مستوفية الشرائط، أما الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر، وتخصيصها بالذكر لأن وقتها يجيء

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٨/ ٣٨١.

بعد نومة القيلولة وقد تفوت المصلي، والأمر بالقنوت هو الخشوع لله والتفرغ لذكره في الصلاة، فلا شغل في الصلاة لغير ذكر الله والخشوع له والتجرد لذكره[(١)].

ويقول تعالى في صفة الخاشعين في صلاتهم بأنهم مؤمنون كاملو الإيمان، وأنها سبب لفوزهم وفلاحهم، لأنهم فرغوا قلوبهم من مشاغل الدنيا، وهم في صلاتهم يقفون بين يدي الله سبحانه وتعالى، بل لقد سكنت جوارحهم بذكره تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ٢٣/١-٢].

إن الغرض من العبادات إنما هو الخشوع لله سبحانه باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، أما الصلاة فهي أهم أركان الدين الإسلامي فقد فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده ليعبدوه وحده، لا يشركوا معه أحداً من خلقه في عبادته، فالصلاة فرض محدود بأوقات لا يجوز الخروج عنها، فالصلوات الخمس تطهر النفوس وتنظفها من الذنوب والآثام، إن الغرض الحقيقي من الصلاة إنما هو تعظيم الإله فاطر السماوات والأرض بالخشوع له، والخضوع لعظمته الخالدة، وعزته الأبدية، فلا يكون المرء مصلياً لربه حقاً إلا إذا كان قلبه حاضراً مملوءاً بخشية الله وحده، فلا يغيب عن مناجاته بالوساوس الكاذبة أو الخواطر الضارة، ومن يقف بين يدي خالقه وقلبه على هذه الحالة ذليلاً خاشعاً، خائفاً وجلاً من جلال ذلك الخالق القادر القاهر، ذي السطوة التي لا تحد، والمشيئة التي لا ترد فإنه بذلك يكون خاشعاً مستقيماً قوياً في علاقته مع ربه[(٢)].

---

(١) باختصار من ظلال القرآن، سيد قطب ١/٢٥٨.

(٢) بتصرف من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، عبد الرحمن الجزيري، طباعة دار الفكر - بيروت، ط أولى ١٤١٧/١٩٩٦م، ١/١٦٠ وما بعدها.

المبحث الرابع

أثر الصلاة في حياة الفرد والمجتمع

الصلاة هي الرباط الروحي الذي يصل المسلم بربه بعد الإيمان به تعالى، ولذا قال تعالى ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ على معنى وأقم الصلاة لتذكرني، وهي نور يشرق في جنبات النفس الإنسانية، فيجعل المسلم ينظر إلى الحياة نظرة خاصة به أساسها الفهم عن الله، والوقوف عند حدوده، وتعظيم ما عظم الله، وتحقير ما حقره، فلا يتلوث بشيء يدنسه، ولا يرتع في شهوات يعلم أنها تجلب عليه مقت الله وغضبه.

يقول تعالى في سورة إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٧].

يقول ابن كثير: «جعل الله بيته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده، ربي إني فعلت ذلك بأمرك لكي يؤدوا الصلاة بحدودها، وارزقهم حتى يشكروا لك عظيم نعمك»(١).

إن اتباع الهوى والشيطان يجعل الناس يتركون الصلاة ويفوتونها عن وقتها، ويتركون أركانها وواجباتها، ويتبعون ما يوافق شهواتهم ويلائمها، فسوف يلقون شراً وضلالة وخيبة، لأن ترك الصلاة وإضاعتها أثَّر في سلوكيات هؤلاء الأفراد فانحرفوا عن جادة الطريق، فوقعوا بذلك في المهالك الموصلة لجهنم وبئس المهاد قال تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ١٩/٥٩].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤/٥١٣.

وقد وعد الله الجماعة المؤمنة بالنصر والتمكين في الأرض، فلما تحقق لهم ذلك، واستخلفهم الله في الأرض بإظهارهم على عدوهم، أقاموا الصلاة، مداومين عليها، محافظين عليها، خاشعين فيها، وبإقامة الصلاة بالكيفية المطلوبة أثرت الصلاة في سلوكهم فأحكموا الشريعة، وأتمروا بأمر الله، وانتهوا عن نهيه، فلذلك كانوا أهلاً لتمكين الله لهم بإقامة الشعائر التعبدية والحفاظ على المجتمع طاهراً قوياً متماسكاً في وحدته الإسلامية محتكماً إلى شريعة الله تعالى القائل: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٤١].

ويقول تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٥].

إن المحافظة على الصلاة تنهى صاحبها عن الوقوع في المعاصي والمنكرات، وذلك لأن المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها يستنير قلبه، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، ولذكر الله في الصلاة وغيرها أعظم وأكبر وأفضل من كل شيء(١).

ويقول تعالى في سورة المعارج مبيناً أثر الصلاة في حياة المجتمع المسلم وكيف أن إقامة الصلاة تقي المجتمع من الشرور والمهالك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ١٩-٢٣].

---

(١) التفسير الميسر ص٤٠١.

الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه، وهؤلاء هم المصلون المحافظون على الصلاة في أوقاتها، فهم دائمون على صالح الأعمال، لأن أحب الأعمال إلى الله أدومها، فعلينا بالصلاة لأنها خلق المؤمنين الحق[١].

والصلاة إلى جانب ذلك كله رباط اجتماعي نظيف طاهر قوي، فالمسلم حين يلتقي بأخيه المسلم في المسجد على هدف واحد هو إرضاء الله تعالى، ثم يقف بجواره في صف الصلاة، ويشاهده بين الحين والحين، ذاهباً إلى المسجد، وواقفاً مثله بين يدي الله، فإن ذلك يشد كل مصلٍّ إلى أخيه ليتعارفا، ويتآلفا، ويتشاركا وجدانياً وعاطفياً، وبذلك توجد بينهما وحدة من صنع الله وضاءة بريئة، ذات أثر إيجابي حين يصدق هذا الإخاء، وتستمر هذه الوحدة الإسلامية الأصيلة، والصلاة نظام ونظافة، وعمل وحركة، وعلم وتطبيق، وتراحم وتعاطف، وتربية نفس وقوة روح، واتزان واعتدال، فما أجدر أن تسمى الصلاة حياة الفرد المسلم وحياة المجتمع المسلم، فهي بحق مدرسة التربية الإسلامية العالية التي تربي الفرد والمجتمع على حد سواء[٢].

المبحث الخامس

الثواب العظيم لمقيمي الصلاة

أعد الله سبحانه وتعالى ثواباً عظيماً للمقيمين للصلاة، الدائمين عليها المحافظين والخاشعين، أجر الصلاة كبير وكثير وعظيم، ثواب جزيل وأجر

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٢٢٦.

(٢) بتصرف من كتاب تعليم الطهارة والصلاة، الشيخ حسن أيوب، طباعة دار العلم الكويت، الطبعة الخامسة، ١٣٩٧هـ، ص١٠ وما بعدها.

دائم غير منقوص ولا ممنوع ولا مقطوع، فمن أجر الصلاة العاجل في الدنيا أنها تبعث في نفس صاحبها الأمن والطمأنينة، وفي الآخرة الثواب الموصل لجنات الله ورضوانه.

يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٧].

إن الله سبحانه وتعالى يعد الذين يقيمون حياتهم على الإيمان والصلاة والعبادة والتعاون، أن يحتفظ لهم بأجرهم عنده، ويعدهم بالأمن فهم لا يخافون، وبالسعادة فهم لا يحزنون، وهذا رخاء عظيم لمن آمن بالله وربط حياته بالعمل الصالح وبالصلاة التي هي عماد الدين فما أعظمه من أجر وما أجزله من ثواب(١).

ويقول تعالى في سورة النساء: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٢].

الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع، والمؤمنون بما أرسل به محمد ﷺ، ويقيمون الصلاة معترفين بوجوبها وكتابتها عليهم، أولئك المتصفون بهذه الصفات سيؤتيهم الله تعالى الأجر العظيم يعني الجنة(٢).

إن الذين يؤمنون بالله ويتمسكون بما أنزل من البينات ويقيمون الصلاة، لن يضيع أجرهم عند الله فهو محفوظ ومدخر عنده سبحانه وتعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٠].

---

(١) ظلال القرآن ١/ ٣٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٧٧٨.

الذين يداومون على الصلوات المفروضة في أوقاتها، وينفقون أموالهم في سبيل الله، هم المؤمنون حقاً ظاهراً وباطناً بما أنزل الله عليهم، لهم منازل عالية عند الله، وعفو عن ذنوبهم ورزق كريم وهو الجنة ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٣-٤].

ويقول تعالى في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٨].

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: «في الآية دليل بشهادة الإيمان الصحيحة لعُمَّار المساجد، لأن الله سبحانه وتعالى ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها، ولم يخش إلا الله مما يُعبد، فلم يخف في باب الدين إلا الله، فخليق بهم، وعسى من الله واجبة، أن يكونوا من المهتدين[١]».

والصابرون على الأذى، وعلى الطاعة، وعن المعصية طلباً لرضا ربهم، وأدوا الصلاة على أتم وجوهها، وزكوا، وأنفقوا ودفعوا بالحسنة السيئة، أولئك الموصوفون بهذه الصفات لهم العاقبة المحمودة في الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٢].

ويقول تعالى في سورة النور: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٧-٣٨].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/ ٨٤.

رجال لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لمستحقيها، يخافون يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب بين الرجاء في النجاة والخوف من الهلاك، وتتقلب فيه الأبصار، ينظر إلى أي مصير تكون؟ ليعطيهم الله ثواب أحسن أعمالهم، ويزيدهم من فضله بمضاعفة حسناتهم، والله يرزق من يشاء بغير حساب، بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله وبلا عدد ولا كيل[١].

إن الذين يقرؤون القرآن، ويعملون به، وداوموا على الصلاة في أوقاتها، والمنفقين بالليل والنهار، سراً وعلانية، ويرجون بذلك العمل تجارة مع الله رابحة لا تكسد ولا تكهل، وهي رضا الله ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، هؤلاء سيوفيهم الله تعالى ثواب أعمالهم كاملاً غير منقوص ويضاعف لهم الحسنات من فضله، إن الله غفور لسيئاتهم، شكور لحسناتهم، يثيبهم عليها الجزيل من الثواب، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٣٥/٢٩-٣٠].

مما تقدم في الحديث عن الصلاة، يتبين لنا منزلة الصلاة الكبرى في الإسلام، حيث لا تعدلها أي عبادة أخرى، فالصلاة عماد الدين، وهي الحد الفاصل بين الكفر والإيمان كما بينا، ولا خلاف بين أئمة المسلمين في كفر من ترك الصلاة منكراً لوجوبها، أما إذا كان تركه لها تكاسلاً مع اعتقاده لوجوبها فيعتبر فاسقاً وعاصياً يحمل ويستتاب عليها، حتى يعود للصلاة، وعرفنا أن الصلاة هي دعامة كل الأديان، وقد كانت الصلاة أقدم عبادة لأنها من مستلزمات الإيمان، والصلاة هي طريق النجاح

---

(١) التفسير الميسر، ص٣٥٥.

والسعادة في الدارين، إن صلاها المسلم بخشوع، فالخاشع هو الذي يخضع قلبه، ويسيطر عليه الرهبة والخوف والرجاء، وهو من دعائم قبول الصلاة عند الله تعالى، والصلاة ثقيلة على النفوس باستثناء الذين خشعت قلوبهم وحرصت على القربى من الله.

يقول الشيخ عفيف طبارة في كتابه (روح الصلاة) متحدثاً عن خصائص الصلاة: «فالصلاة في الإسلام بما تحتويه من مراقبة الله وقيام وسجود له وما تشتمل عليه من معاني القربى له، تربط المصلي بخالقه وتشعره بعلو مكانته في نظر نفسه، حتى يرى من آثار الكرامة ما يستقذر معه الإتيان بالقبائح، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر»[(١)].

وبعد فإن الصلاة هي عماد الدين لا يقوم الدين إلا به، فهي رأس الأمر في الإسلام، فهي الذكر الدائم، وقد بلغت عناية الإسلام بالصلاة بالمحافظة عليها في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والصلاة من الأمور الكبرى التي تحتاج إلى هداية خاصة، وترك الصلاة جحوداً بها وإنكاراً لها كفر وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، أما من تركها مع إيمانه بها واعتقاد فرضيتها، ولكن تركها تكاسلاً أو تشاغلاً عنها، بما لا يعد في الشرع عذراً فهو كافر يجب قتله، مع أن أبا حنيفة ومالكاً والشافعية على أنه لا يكفر، بل يفسق ويستتاب وعارضوها ببعض النصوص العامة[(٢)].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المقيمين للصلاة المداومين والمحافظين عليها.

---

(١) روح الصلاة في الإسلام للشيخ عفيف عبد الفتاح طبارة، طباعة دار العلم للملايين بيروت ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م الطبعة الخامسة، ص٣٢.

(٢) فقه السنة العبادات، للشيخ السيد سابق، دار البيان، مصر، الطبعة الثانية ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ١/ ٩٠.

المحاضرة العاشرة

بر الوالدين في القرآن الكريم

إن أعظم الواجبات على العباد بعد واجب العبودية لله هو واجب بر الوالدين، والذي يطيل النظر في نصوص الكتاب والسنة يتبدى له هذا واضحاً جلياً من خلال النصوص، وقد أظهرت النصوص القرآنية عظم هذا الواجب، وأبانت أن حق الوالدين يأتي بعد حق الله تعالى مباشرة.

عناية القرآن الكريم بالوالدين وبيان حقوقهما

لقد أبرز القرآن الكريم عناية فائقة بالوالدين وبرهما وحقوقهما، وذلك في صور عديدة هي الإحسان، والكلمة الطيبة، والتواضع ولين الجانب معهما، والدعاء لهما، وطاعتهما في غير معصية الله، وسنتناول هذه الصور حتى نتعرف على بر الوالدين في القرآن الكريم من خلال هذه المباحث.

المبحث الأول

الإحسان إليهما

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٨٣].

في الآية دليل على الإحسان للوالدين وهم أحق الناس بحسن الصحابة من أولي القربى والأولاد وغيرهم.

ويقول تعالى في سورة النساء: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٣٦].

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه، فهو المستحق منهم أن يوحدوه، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، ومن الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء(١).

ويقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥١].

يقول الإمام القرطبي رحمه الله ونفعنا بعلمه: قوله تعالى ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ الإحسان إلى الوالدين برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما، وأحسنوا بالوالدين إحساناً(٢).

أمر الله سبحانه وتعالى بعبادته، ونهى عن الشرك به، ويستجيش القرآن

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١/ ٦٥٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٧/ ١١٧.

الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء، إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات، فيجد الأبناء كل اهتمام من الوالدين، فإذا هما صارا إلى شيخوخة فانية إن أمهلهما الأجل، هنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله، فإذا بلغ الوالدان الكبر والضعف فلا ينبغي للولد أن يشعرهما بالضجر والضيق، وأن يكون كلامه لهما بشيء من الإكرام والاحترام، وأن يرحمهما ويتلطف، فلا يرفع عيناً، ولا يرفض أمراً، وهما في حالة الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان، عليه أن يتوجه إلى الله بالدعاء لهما أن يرحمهما رحمة واسعة، فالله وحده هو القادر على جزاء الوالدين مما لا يقدر على جزائه الأبناء[1].

يقول تعالى في بيان تلك المعاني المتقدمة من الإحسان للوالدين: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٣-٢٤].

ويقول تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٨].

أوصى الله الإنسان - فيما أنزل على الرسول الكريم ﷺ - بوالديه أن يفعل بهما حسناً وخيراً، وقيل: إن هذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص لما هاجر قالت أمه: والله لا يظلني بيت حتى ترجع، فأنزل الله في ذلك أن يحسن إليهما، ولا يطيعهما في الشرك[2].

(١) انظر ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٢.

(٢) جامع البيان للطبري ٢١/ ١٣١.

ويقول تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ١٥].

ووصينا الإنسان أن يحسن في صحبته لوالديه براً بهما في حياتهما، وبعد مماتهما، فقد حملته أمه جنيناً في بطنها على مشقة وتعب، وولدته على مشقة وتعب أيضاً، ومدة حمله وفطامه ثلاثون شهراً، وفي ذكر هذه المشاق التي تتحملها الأم دون الأب دليل على أن حقها على ولدها أعظم من حق الأب، حتى إذا بلغ هذا الإنسان نهاية قوته البدنية والعقلية، وبلغ أربعين سنة دعا ربه قائلاً: ربي ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمتها علي وعلى والدي، واجعلني أعمل صالحاً ترضاه، وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك من ذنوبي، وإني من الخاضعين لك بالطاعة، والمستسلمين لأمرك ونهيك المنقادين لحكمك[١].

المبحث الثاني

الكلمة الطيبة وحسن المعاملة

ومنهج القرآن الكريم في بر الوالدين مترابط النسق والبيان في صور إرشادية وتوجيهية وتربوية عظيمة، ومن هذه الصور: الكلمة الطيبة للوالدين، والمعاملة الحسنة الكريمة، كما جاء في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٣].

---

(١) التفسير الميسر ص٥٠٤.

ينهى الله الأبناء في معاملة الوالدين عن التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ، فلذلك كان الضجر والكلمة السيئة أشد نهياً، وفي مقابل ذلك الإحسان والبر والكلمة الطيبة والتقدير والاحترام مع الرأفة والرحمة بهما.

ويقول تعالى في سورة لقمان: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ١٥].

وإن كان الوالدان على الشرك فإن الله يأمر بعدم طاعتهما في الشرك ولكن مع ذلك لا بد من مصاحبتهما في الدنيا بالطاعة كما تشير الآية الكريمة.

المبحث الثالث

التواضع ولين الجانب

يأمر الله تعالى الأبناء بأن يكونوا ذليلين متواضعين للوالدين رحمة بهما، وأن يطلبا من الله أن يرحمهما برحمته الواسعة لكل شيء، الأحياء والأموات، كما صبرا على تربيتهم أطفالاً ضعافاً لا حول لهم ولا قوة: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٤].

ويقول تعالى في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ١٤].

يأمر الله تعالى الإنسان ببر والديه والتواضع لهما، فأمه حملته ضعفاً على ضعف وشدة على شدة، وهن الولد على وهن الوالدة وضعفها، وفطامه في

انقضاء عامين، أن يشكر لله نعمه، وللوالدين تربيتهما، فلا بد من برهما ولين الجانب لهما، لما لقياه من العناء والمشقة في طفولة وصبا الأبناء[١].

المبحث الرابع

الدعاء لهما

من صور البر التي ذكرها القرآن الكريم الدعاء للوالدين بالرحمة والصحة والعافية والخير، وأن يستمر هذا الدعاء مدة حياتهما، وبعد مماتهما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤١].

إنه مشهد الدعاء الخاشع الضارع، ومشهد تعداد النعم والشكر عليها، يدعو الله أن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم القيامة.

ويقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٤].

ومن صور الدعاء للوالدين في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٦].

ويقول تعالى في سورة نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٧١/ ٢٨].

لقد دعا نوح، عليه السلام، له ولوالديه وشمل بدعائه الدعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، ولهذا يستحب فعل هذا الدعاء، اقتداء بنوح، عليه السلام، وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة[٢].

---

(١) انظر جامع البيان للطبري ١/ ٧٠.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٢٣٧.

إن الدعاء للوالدين هو منهج الأنبياء والصالحين، وإن هذا الدعاء يجب أن يستمر من الأبناء للوالدين إلى ما بعد وفاتهما، لأن السنة النبوية أوضحت أن بر الوالدين يكون بعد وفاتهما أيضاً، وذلك بالاستغفار لهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما وقضاء الديون التي على الوالدين للعباد ولرب العباد، روى مسلم في صحيحه عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية، وإنها ماتت. فقال: «وجب أجرك وردها عليك الميراث»، قالت: يا رسول الله، إنها كانت عليها صوم شهر، أفأصوم عنها؟ قال: «صومي عنها»، قالت: إنها لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: «حجي عنها»[1].

المبحث الخامس

حدود طاعة الوالدين

طاعتهما في غير معصية الله

يجب طاعة الوالدين في كل الأمور المباحة فعلاً أو تركاً دون ضر أو هلاك محقق، فإذا أمر الأب ولده بمعصية سواء كانت تركاً لواجب أو فعلاً لمحرم فلا طاعة له، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٨].

لا طاعة للوالدين في ترك الفرائض جميعها بما في ذلك الجهاد في حالة الكفاية، ولا يحل للابن طاعة الوالد الكافر إذا أمره بالكفر والشرك

---

(١) رواه مسلم والترمذي وأبو داوود، راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، مصر ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ١٠/ ٤٠٤.

والعصيان، ولكن لا يجوز للابن مقاطعة والديه وهجرهما، وترك الإحسان إليهما بل يأمر الإسلام في مثل هذه الحال بمصاحبتهما في الدنيا معروفاً.

قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ١٥].

مما تقدم يتضح لنا أن الناس في بر الوالدين فريقان: فريق استجاب لربه وعبده وأطاعه، وأحسن إلى والديه، ويصور القرآن هذا النمط من البشر وقد بلغ سن الأشد، وهي السن التي تكتمل فيه قوى الإنسان الفكرية والعقلية، وتصبح موازينه ومقاييسه أكثر دقة واتزاناً، فإذا به يتوجه إلى ربه تبارك وتعالى، متوسلاً إليه، بأن يلهمه شكر نعمته التي أنعم عليه وعلى والديه، والنعمة هنا هي النعمة الكبرى نعمة الإيمان، والالتزام بالمنهج الإلهي الذي يقود إلى التي هي أقوم، ومع الإيمان نعم كثيرة في النفس وفي الوالدين والأهل، ونعم الله التي لا تحصى، إن هذا الصنف كما أبان القرآن هو الصنف الفاضل الذين استقام بهم الطريق، فأعمالهم الصالحة مقبولة لأنها خالصة لله، قائمة على أساس متين، وهو التوحيد والإسلام(١).

والفريق الآخر: هو ذلك العاق لوالديه المكذب بالبعث والنشور، المستعلي على الحق، إنه يواجه والديه بما لا يليق فيقول: أف لكما. ثم هو يكذب بالإيمان، ويطعن في والديه بالعقوق، ولكن الوالدين المؤمنين المشفقين مع عقوقه لهما، يتوجهان إلى الله تعالى طالبين منه لابنهما الهداية، لذا كان عقوق الوالدين من أكبر الكبائر وأعظم الذنوب.

(١) انظر مسائل في فقه الكتاب والسنة، د. عمر سليمان الأشقر، ص٦٧ ومابعدها.

إن الإساءة إلى الوالدين وعدم الاعتراف بفضلهما انحراف عن الفطرة السوية، ونجد في عصرنا الحاضر كثيراً من الأبناء يقومون بطرد الوالدين من منازلهم وسكناتهم بطريقة مخجلة وهي الذهاب بهم إلى دار العجزة والمسنين، إنها دار الهلكة والعاقين، أما الإحسان إلى الوالدين فهو من الفطرة السوية التي فطر الله العباد عليها.

إن الإحسان إلى الوالدين واجب في كل وقت، ولكنه يتأكد حال كبرهما وعجزهما، لأن حالة الكبر هي الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره، لتغير حالهما بالضعف والكبر، فيجب أن يلتزم الإنسان في هذه الحالة مراعاة أحوالهما أكثر مما لزمه من قبل، ففي هذه الحالة يحتاجان أن يلي منهما ما كان يحتاج إليه في صغره أن يليا منه، والوصية بالأم أقوى وأشد من الأب.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل البر والإحسان إلى الوالدين.

المحاضرة الحادية عشرة

الصبر في القرآن الكريم

الصبر هو زاد المؤمن في حياته، الموصل لرضوان الله تعالى صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر في الشدائد والبلاء لذا كانت مجالات الصبر في الحياة كثيرة ومتعددة، يخبرنا القرآن الكريم أن مخالطة الناس تحتاج إلى صبر، والجهاد في سبيل الله يحتاج إلى الصبر، وطلب العلم من دراسة وتعلم وبحث علمي يحتاج إلى صبر، لذا كان الصبر عظيماً، وضرب لنا القرآن الكريم نماذج للصابرين من أنبياء الله مثلاً، أنها روائع الصبر على البلاء.

المبحث الأول

مجالات الصبر

أولاً: القيام بالواجبات الدينية يحتاج إلى صبر

يقول تعالى في سورة مريم: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٦٥].

فهو الله رب السماوات والأرض، وما بينهما، ومالك ذلك كله وخالقه ومدبره، فاعبده وحده واصبر على طاعته أنت ومن تبعك، ليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله[1].

---

(١) التفسير الميسر، ص٣١٠.

ثانياً: مخالطة الناس تحتاج إلى صبر

قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٠].

وما أرسلنا قبلك يا محمد أحداً من رسلنا إلا كانوا بشراً، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وجعلنا بعضكم أيها الناس لبعض ابتلاء واختباراً بالهدى والضلال، والغنى والفقر، والصحة والمرض، هل تصبرون؟ فتقوموا بما أوجبه الله عليكم وتشكروا له، فيثبكم مولاكم، أو لا تصبرون وكان الله بصيراً بمن يجزع أو يصبر[(١)].

ثالثاً: الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر

يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٠٠].

أمرهم الله أن يصبروا في جهاد أعداء الله، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم، وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والمداومة على الجهاد في سبيل الله، فمصابرة الأعداء واجبة حتى لا يكون الأعداء أشد صبراً، والرباط في سبيل الله من أعلا مراتب الجهاد وهو الطريق الموصل إلى الفوز برضا الله في الدنيا والآخرة[(٢)].

ويقول تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٥-٤٦].

---

(١) التفسير الميسر، ص٣٦١.

(٢) باختصار من تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٥٨٩ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي جماعة، أمرهم بالثبات عند لقاء الكفار وقتالهم، وأمرهم بذكر الله عند جزع القلوب، واثبتوا بقلوبكم واذكروه بألسنتكم، فأمر بالذكر حيث يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، كما أمرهم بطاعة الله ورسوله، وألا يختلفوا، حتى لا تذهب قوتهم، وأمرهم بالصبر وهو محمود في كل المواطن وخاصة في مواطن الحرب[1].

رابعاً: الدراسة والبحث العلمي يحتاج إلى صبر

إن الحصول على العلم يحتاج إلى طول زمان مع المعلم والكتاب والقلم، فلا يمكن الحصول على العلم والتزود به، والاستمرار في الزيادة فيه إلا بالبحث العلمي المتواصل، والتفكر الدائم في ملكوت الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١/٢٩-٣١].

يزيد الله من نقصان ساعات الليل في ساعات النهار، ويزيد ما نقص من ساعات النهار في ساعات الليل، وسخر الشمس والقمر لمصالح خلقه ومنافعهم، كل ذلك يجري بأمره إلى وقت معلوم، وأجل محدود إذا بلغه كورت الشمس والقمر، وإن الله بأعمالكم أيها الناس من خير وشر ذو خبرة وعلم لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم على جميع ذلك، وإن الله هو الحق دون ما يدعوه هؤلاء المشركون به، وإنه لا يقدر على فعل ذلك

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٦/٨ وما بعدها.

سواه، وكل ما دونه فله متذلل منقاد، الكبير الذي كل شيء دونه، فله متصاغر، يقول تعالى لنبيه ﷺ : ألم تر يا محمد أن السفن تجري في البحر بنعمة من الله على خلقه، ليريكم من عبره وحججه عليكم، إن في جري الفلك في البحر دلالة على أن الله الذي أجراها هو الحق، وأن ما يدعون من دونه الباطل، وخص الله هذه الدلالة للصبَّار الشكور دون سائر الخلق، لأن الصبر والشكر من أفعال ذوي الحجا والعقول، فأخبر أن في ذلك لآيات لكل ذي عقل، لأن الآيات جعلها الله عبراً لذوي العقول والتميز(١).

خامساً: الصبر على بلاء الدنيا

فهناك الصبر على بلاء الدنيا ونكبات الأيام، وهذا ما لا يخلو منه بر ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر، ولا سيد ولا مسود، لأنه راجع إلى طبيعة الحياة، وطبيعة الإنسان، وما رأينا أحداً يسلم من آلام النفس، وأسقام البدن، وفقدان الأحبة، وخسران المال، وإيذاء الناس، ومتاعب العيش، ومفاجآت الدهر، وهذا النوع من الصبر هو الذي لا يخطر على بال الكثيرين(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٥-١٥٧].

---

(١) باختصار من جامع البيان للطبري ٢١/ ٨٤ ومابعدها.

(٢) من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم الصبر في القرآن، د يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر ط٣، ١٤١٠هـ، ص٣٥.

أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده، أي يختبرهم ويمتحنهم، فتارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، بقليل من الجوع والخوف، وبذهاب بعض الأموال، والأنفس بموت الأصحاب والأقارب والأحباب، والثمرات، بعدم الثمر والقحط، فالبشارة للصابرين عما أصابهم بقولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، علموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك، أولئك عليهم صلوات، ثناء من الله عليهم، ويأمنهم من عذابه وهم المهتدون(١).

المبحث الثاني

فضل الصبر وثوابه

يوضح الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز أن من فضل الصبر أنه يورث أصحابه معية الله سبحانه وتعالى، ومن كان الله معه فقد فاز بفضل كل شيء في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٣].

ومن فضل الصبر على الصابرين ما رواه الحق في كتابه عن قصة طالوت حينما خرج بجنوده لقتال العمالقة، وكان في ذلك امتحان لهم على الصبر بعدم الشرب من ماء النهر على شدة الحر والعطش، فقد غلبت الفئة القليلة المؤمنة الصابرة بإذن الله الجماعة الكثيرة الكافرة الباغية، والله مع الصابرين بتوفيقه ونصره وحسن مثوبته ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٦٩-٢٧٠.

مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٩].

ويقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٦].

تحدثنا الآية أن الكثيرين من الأنبياء السابقين قاتل معهم جموع كثيرة من أصحابهم، فما ضعفوا لما نزل بهم من جروح أو قتل، لأن ذلك في سبيل ربهم، وما عجزوا، ولا خضعوا لعدوهم، إنما صبروا على ما أصابهم والله يحب الصابرين[١].

ويقول تعالى في سورة الأنفال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٦].

يقول القرطبي رحمه الله: «فلما خفف الله تعالى عنهم من العدد نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم، وكتب عليهم ألا يفر مئة من مئتين فهم يقاتلون على الثواب، والنصر يكون مع الصبر»[٢].

إن للصابرين حسنة في الآخرة وهي الجنة، وفي الدنيا زيادة على ثواب الآخرة، وهو ما رزقهم من خير الدنيا، أو العافية والصحة أو طاعة الله في الدنيا وجنته في الآخرة، أو الظفر والغنيمة، وقال الإمام علي رضي الله

---

(١) التفسير الميسر ص٦٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/ ٤٤.

عنه: «كل أجر يكال كيلاً ويوزن وزناً إلا أجر الصابرين فإنه يحثا لهم حثواً»(١).

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٠].

ويقول تعالى في سورة محمد: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٣١].

ولنختبرنكم أيها المؤمنون بالقتال والجهاد لأعداء الله حتى يظهر أهل الجهاد منكم، والصبر على قتال أعداء الله، ونختبر أقوالكم وأفعالكم فيظهر الصادق منكم والكاذب، فيثاب الصادقون الصابرون ثواباً عظيماً(٢).

المبحث الثالث

من روائع أمثلة الصبر على البلاء

إن المثال الأول في الصبر على البلاء هو حبيبنا وعظيمنا نبينا ورسولنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، سنوات الحصار الطويلة في مكة، ومكايدات الكفار والمنافقين واليهود في المدينة، وكان حصاد هذا الصبر الجميل النصر المبين والفتح العظيم وانتشار نور الإسلام في كل أرجاء الأرض، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحٗا مُّبِينٗا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسْتَقِيمٗا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ١-٣].

---

(١) تفسير القرآن للشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السليمي الدمشقي الشافعي، تحقيق د. عبد الله إبراهيم، ط أولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، المؤلف ٣/ ٩٥.

(٢) التفسير الميسر، ص٥١٠.

ومن أمثلة الصبر على البلاء صبر إبراهيم عليه السلام، إنه صبر أولي العزم من الرسل قال تعالى في سورة الصافات: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠٠-١١٠].

وهذا نموذج رفيع من نماذج الصبر، لأنه يمثل الصبر على طاعة الله فيما أمر، مهما يكن وراءه من مخاطر وتضحيات، فقد رأى الخليل إبراهيم صلوات الله عليه في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وحي، ففهم الإشارة، وعرف المراد، فجاء بابنه المطلوب وعرض عليه الأمر، في غاية من الإيجاز والسهولة، ولكنه يتضمن أمراً في غاية الخطر، وهو بذل الحياة والروح طاعة لله، لقد كان موقف الفتى إسماعيل، عليه السلام، وقد طلب منه تقديم عنقه للسكين، بعد أن اشتد ساعده وصلب عوده ونضر شبابه، لقد حسم الموقف بجملتين قالهما لأبيه، خلدتاه في سجل الأنبياء الصابرين، وجعلتا منه قدوة للمؤمنين الصالحين، يا أبت افعل ما تؤمر، لا تأخذ برأيي، ولا تنتظر مشورتي، بل نفذ ما عندك من أمر الله، دون هوادة ولا إبطاء، ومع ذلك لا يدعي بطولة ولا شجاعة ولا يتطاول بقدرته على التحمل، بل يكل الأمر إلى الله، ويستند في صبره إلى إذنه ومشيئته، وإنه بهذه المشيئة المعينة والموفقة سيدخل في زمرة الصابرين، وعند ساعة الذبح كان الابتلاء قد بلغ غايته وحقق ثمرته، لقد نجح الوالد والولد كلاهما في الامتحان، ونفذا ما أمر الله به دون تردد أو ارتياب، فجاءتهم البشرى من

السماء بصدق الرؤيا، ونجاحهم في الامتحان، وذكرهم الله في كتابه، وعدهم من أئمة الصابرين المحتسبين(١).

ومن هذه النماذج العظيمة نموذج عظيم في الصبر على البلاء هو نبي الله أيوب، عليه السلام، الذي صبر وصابر بعزم الأنبياء:

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٣-٨٤].

قصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء، وأيوب في دعائه لا يزيد على وصف حاله ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ ووصف ربه بصفته ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبراً على بلائه، ولا يقترح شيئاً على ربه تأدباً معه وتوقيراً، فهو نموذج للعبد الصابر، لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتملل من الضر، وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه كانت الاستجابة وكانت الرحمة وكانت نهاية الابتلاء رفع عنه الضر في بدنه، فإذا هو معافى صحيح، ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقده منه، ورزقه مثلهم، وقيل: هم أبناؤه فوهب له مثليهم، أو أنه وهب له أبناء وأحفاداً، رحمة من عند الله ومنة، والإشارة للعابدين بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها، فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء، وتلك تكاليف العبادة، وتكاليف العقيدة، وتكاليف الإيمان، فالعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء القادرين عليها، المستعدين لتكاليفها، وليست كلمة تقولها الشفاه، ولا دعوى يدعيها من يشاء، ولا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء.

ويقول تعالى في سورة ص: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ

---

(١) انظر الصبر في القرآن، للدكتور يوسف القرضاوي، ص٧١ ومابعدها.

ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٤١-٤٤].

واذكر يا محمد عبدنا أيوب وهو من سلالة يعقوب حين دعا ربه أن الشيطان تسبب له في التعب والمشقة، والألم في الجسد والمال والأهل فأمره الله أن يضرب برجله الأرض فنبع له منها ماء بارد، فشرب واغتسل منه، فذهب عنه الضر والأذى، فكشف الله عنه الضر وأكرمه، ووهب له أهله من زوجة وولد، وزاده مثلهم بنين وحفدة، كل ذلك رحمة من الله، وإكراماً له على صبره، وعبرة وذكرى لأصحاب العقول السليمة، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج وكشف الضر، وأمره الله أن يأخذ بيده حزمة شماريخ، فاضرب بها زوجك إبراراً بيمينك، فلا تحنث، لأنه أقسم على ضربها مئة جلدة على خطأ ارتكبته، لقد كان أيوب صابراً على البلاء، نعم العبد أيوب الصابر، الكثير الرجوع إلى طاعة الله[1].

---

(١) انظر التفسير الميسر ص٤٥٥-٤٥٦.

المحاضرة الثانية عشرة

أثر المعاصي على الأمم في القرآن الكريم

المبحث الأول

تحذير القرآن الكريم من المعاصي

لقد حذر القرآن الكريم في كثير من آياته من ارتكاب المعاصي التي تجعل العبد في عداد العصاة المذنبين، وتخرجه من دائرة عباد الله الطائعين العابدين، يقول تعالى في سورة يس: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٦٥].

﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ليعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم، أو لأن إقرار غير الناطق وشهادته أبلغ من إقرار الناطق، أو ليعلم أن أعضاءه التي أعانته في حق نفسه من المعصية صارت شهوداً عليه في حق الله، ختم على أفواههم حتى نطقت جوارحهم، وسمى كلام الأرجل شهادة لأن الأعمال باليد والرجل حاضرة، فعبر عما صدر عن الأيدي بالكلام[1].

ويقول تعالى في سورة فصلت: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا

---

(١) تفسير القرآن الكريم، عز الدين بن عبد السلام ٣/ ٤٣.

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٤١/١٩-٢٣].

ويوم يحشر أعداء الله إلى نار جهنم ترد زبانية العذاب أولهم على آخرهم حتى إذا ما جاؤوا النار وأنكروا جرائمهم، شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون في الدنيا من الذنوب والآثام، وقالوا معاتبين لجلودهم: لم شهدتهم علينا؟ أجابوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وهو الذي خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئاً وإليه مصيركم بعد الموت للحساب والجزاء، وما كنتم تستخفون عند ارتكابكم المعاصي، خوفاً من أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم وجلودكم يوم القيامة، ولكن ظننتم بارتكابكم المعاصي أن الله لا يعلم كثيراً من أعمالكم التي تعصون الله بها، وذلكم ظنكم السيئ الذي ظننتموه بربكم، أهلككم فأوردكم النار، فأصبحتم اليوم من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم[١].

إن الذي يعمل الصالحات ويطيع الله ورسوله فلنفسه ثواب عمله، ومن أساء فعصى الله ورسوله فعلى نفسه وزر عمله، وما ربك بظلام للعبيد بنقص حسنة أو زيادة سيئة: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤١/٤٦].

ويقول تعالى محذراً من الوقوع في المعاصي: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/١٥].

---

(١) التفسير الميسر ص٤٧٩.

ويقول تعالى في ذات السورة الجاثية: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢١].

بل يظن الذين كذبوا رسل الله، واكتسبوا السيئات، وخالفوا أمر ربهم أن نجعلهم كالذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وعملوا الصالحات، وأخلصوا له العبادة دون سواه، ونساويهم بهم في الدنيا والآخرة، ساء حكمهم بالمساواة بين الفجار والأبرار في الآخرة[١].

إن اتخاذ الهوى إلهاً من دون الله يجعل الإنسان يفعل كل كبيرة وكل معصية وكل ذنب ما دام يسير على هواه، ويكون من الذين أضلهم الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه، فلم يسمع ولم يتعظ ولم يعتبر، فطبع الله على قلبه وغطى بصره، فلا يرى آيات الله، ولم يوفق لإصابة الحق قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٣].

وهذه الآية أصل في التحذير من أن يكون الهوى هو الباعث للمؤمنين على أعمالهم.

ويقول تعالى في سورة الحجرات: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٧].

﴿لَعَنِتُّمۡ﴾ لأثمتم وأهلكتم ونالتكم شدة ومشقة، ولكن الله حبب إليكم

---

(١) التفسير الميسر، ص٥٠٠.

الإيمان، حسنه عندكم بما وصف من الثواب عليه، وزينه بما وعد عليه من نصر الدنيا وثواب الآخرة، وقبح إليكم الكفر والفسوق والعصيان بما وصف عليه من العقاب، فالفاسقون هم الكاذبون الخارجون عن طاعة الله(١).

ويقول تعالى في سورة الجن: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن: ٧٢/٢٣].

يقول تعالى إنما أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها(٢).

إن الإنسان الذي يقع في المعاصي وإن كانت صغيرة في حجم الذرة، مثل وزن النملة الصغيرة شراً، سيجد عقابه في الآخرة قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٩٩/٨].

---

(١) تفسير القرآن الكريم، عز الدين بن عبد السلام ٣/ ٢١٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٨/ ٢٤٥.

المبحث الثاني

آثار المعاصي في القرآن الكريم

إن للمعاصي آثاراً وخيمة، من ذلك زوال النعمة، ومحو البركة من الأرض، وزوال الأمن، والعقوبة والهلاك، حفظنا الله منها، ونتناول هذه الآثار كما جاءت في آيات القرآن الكريم.

الأثر الأول: زوال النعمة

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٣].

تقرر هذه الآية عدل الله تعالى في معاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم، ويبدلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها، ومن الجانب الآخر، يجعل التغير القدري في حياة الناس مبنياً على التغير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم، وتصور الآية حقيقة التلازم بين العمل والجزاء في حياة الإنسان ونشاطه، وتصور عدل الله المطلق فلا يظلم فيها عبد من عبيده[1].

ويقول تعالى في سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٧].

---

(١) باختصار من تفسير الظلال، سيد قطب ٣/ ١٥٣٥ وما بعدها.

من عمل صالحاً وهو مؤمن في فاقة وميسرة فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحاً فمعيشته ضنك لا خير فيها، وقال مجاهد: هي الجنة، وقال: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ بالرضا والأجر في الآخرة[١].

ويقول تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ٧٢/١٦].

لو استقام الإنس والجن على ملة الإسلام لوسعنا عليهم أرزاقهم ولبسطنا لهم في الدنيا، وإنما خص الماء الغدق بالذكر، لأنه أصل المعاش وكثرته أصل السعة، وحيثما كان الماء كان المال وحيثما كان المال كانت الفتنة، إن الخصب والسعة لا يوجدان إلا حيث توجد الطمأنينة والعدل، ويزول الظلم، ويكون الناس سواسية في نيل الحقوق، فلا ظلم، ولا إرهاق، ولا محاباة إن استقاموا ولم يفعلوا المعاصي وإلا فإن عاقبة أمرهم خسراً[٢].

الأثر الثاني من آثار المعاصي: محو البركة من الأرض

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٥/٦٦].

ويقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/٥٨].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٥٤.

(٢) تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي، طباعة دار إحياء التراث العربي بيروت، ٢٩/ ١٠١.

ولو أن أهل الكتاب عملوا بما في التوارة والإنجيل وبما أنزل عليك يا محمد وهو القرآن الكريم، لرزقهم من كل سبيل، فأنزل عليهم المطر، وأنبتنا لهم الثمر، وهذا جزاء الدنيا، وكثير من أهل الكتاب ساء ما يعملون وضلوا عن سواء السبيل، والأرض النقية إذا نزل عليها المطر تخرج نباتاً بإذن الله ومشيئته، طيباً ميسراً، وكذلك المؤمن إذا نزلت عليه آيات الله انتفع بها، وأثمرت فيه حياة صالحة، أما الأرض الرديئة فإنها لا تخرج النبات إلا عسراً رديئاً لا نفع فيه، ولا تخرج نباتاً طيباً وكذلك الكافر الذي لا ينتفع بآيات الله[1].

ويقول تعالى في سورة الطلاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٦٥/ ١-٣].

ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب أي من جهة لا تخطر بباله، ولو أن الناس كلهم أخذوا بهذه الآية لكفتهم، كما قال النبي ﷺ لأبي ذر الغفاري، وهي آية في القرآن كما قاله ابن مسعود "فرجاً"، ومن يتق الله ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة، ومن كل شيء ضاق على الناس، من حيث لا

(١) التفسير الميسر، ص١١٩، ١٥٩.

يدري، ومن حيث لا يرجو ولا يأمل، والله منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاؤه[١].

ويقول تعالى في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢)﴾ [نوح: ٧١/ ١٠-١٢].

فقلت لهم: سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم وعبادة ما سواه من الآلهة، ووحدوه وأخلصوا له العبادة، ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ لذنوب من أناب وتاب منها، متى صدقت العزيمة، وخلصت النية، وصحت التوبة فضلاً منه وجوداً وإن كانت كزبد البحر، ولما كان الإنسان مجبولاً على محبة الخيرات العاجلة، أعلمهم أن إيمانهم بالله يجمع لهم إلى الحظ الأوفر في الآخرة، الخصب والغنى، وكثرة الأولاد في الدنيا، ومن ثم وعدهم بخمسة أشياء: يرسل السماء عليهم متابعاً، فتزرعون ما تحبون، ويكثر الخصب والغلات النافعة لكم في معاشكم، من حبوب وثمار، وتحدث لكم طمأنينة وأمن وراحة لتوافر ما تشتهون، مما هو سبب السعادة والهدى، ويكثر لكم الأموال والخيرات على سائر ضروبها واختلاف ألوانها، ويكثر لكم الأولاد، ويوجد لكم بساتين عامرة تأخذون من ثمارها ما به تنتفعون، ويجعل لكم أنهاراً جارية بها يكثر الخصب والزرع[٢].

ويقول تعالى في سورة الليل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١)﴾ [الليل: ٩٢/ ٥-١١].

تبين الآيات عاقبة كل عمل من الأعمال، فمن يعطي المال وينفقه في

---

(١) باختصار من تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ١٤٥ وما بعدها.

(٢) تفسير المراغي، ٢٩/ ٨٣، ٨٤.

وجوه الخير، وحمى نفسه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولم يوصل الأذى إلى الناس، وصدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب، وبالجنة، فيهيِّئه الله لأسهل الطرق وأيسرها، وأما من أمسك ماله أو أنفقه في شهواته، ولم ينفقه فيما يقربه لربه، وظن أنه لا يحتاج إلى أحد فيصيبه الغرور بكثرة ماله، وكذب بوعد الله والجنة ومرنت نفسه على الشر، فيسهل الله له الخطى للعسرى، فينزل بنفسه إلى حضيض الآثام وأوحال الخطيئة فلن ينفعه ماله إذا هوى إلى أرذل العمر أو هوى في النار[١].

الأثر الثالث من آثار المعاصي: زوال الأمن

إن الأمن الغذائي، والأمن الاجتماعي، والأمن العام، نعمة من نعم الله العظيمة على عباده، فإن هم اتقوا الله وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه وأطاعوه وأطاعوا رسوله محمداً ﷺ، كتب الله لهم الأمن الكامل الشامل ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١١٢].

يضرب الله مثلاً بتلك القرية وهي غير معينة، أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، كانت آمنة غير خائفة، مطمئنة غير منزعجة، لا يخاف أهلها ولا ينزعجون، يأتيها رزقها واسعاً من الأمكنة التي يجلب ما فيها إليها، فكفر أهلها بأنعم الله التي أنعم بها عليهم، وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتعالى، وتكذيبهم رسله، فأذاق الله أهلها لباس الجوع والخوف، فظهر عليهم الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال، وما هو كاللباس بما كانوا يصنعون من المعاصي والذنوب[٢].

---

(١) انظر تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي، ٣/ ١٧٦.

(٢) فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية للشيخ محمد بن علي الشوكاني، طباعة دار الفكر - بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ٣/ ٢٠٠.

الأثر الرابع: العقوبة والهلاك

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٦١].

إنهم يريدون الدنية وقد أراد الله لهم العلية، بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق الدعاء، فهو موفور في أي مكان، إذا هبطوا إلى أية قرية فهو موجود فيها، أو إذا عادوا إلى مصر التي خرجوا منها، عادوا إلى حياتهم الخانعة الذليلة، حيث يجدون العدس والبصل والثوم والقثاء، فضربت الذلة والمسكنة عليهم، وعادوا بغضب الله، بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء وعصيانهم الشديد الذي أوصلهم للاعتداء على حرمات الله وحدوده[(١)].

ويقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٠].

يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير ومن شر، فما رأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاظه، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقال لشيطانه الذي كان مقروناً به في الدنيا، وهو الذي جرأه على فعل السوء: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾

(١) انظر ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٧٤ ومابعدها.

يخوفكم الله عقابه، ثم قال جل جلاله مرجياً لعباده لئلا ييئسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ من رأفته بهم حذرهم نفسه، رحيم بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم(١).

ومن يعصي الله تعالى ورسوله ﷺ بإنكاره لأحكام الله، وتجاوزه ما شرعه الله لعباده، يدخله الله ناراً فيها عذاب مهين عاقبته معصيته لله تعالى ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النساء: ٤/ ١٤].

ويقول تعالى في سورة المائدة: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: ٥/ ٧٨-٧٩].

يخبر تعالى أنه طرد من رحمته الكافرين من بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزله على داوود عليه السلام وهو الزبور، بسبب عصيانهم، وما أنزل على عيسى عليه السلام، وهوالإنجيل بسبب اعتدائهم على حرمات الله، كان هؤلاء اليهود يجاهرون بالمعاصي ويرضونها ولا ينهى بعضهم بعضاً عن أي منكر فعلوه، وهذا من أفعالهم السيئة، وبه استحقوا أن يطردوا من رحمة الله تعالى(٢).

ولو أن الناس في كل مكان صدقوا رسلهم واتبعوهم، واجتنبوا ما نهاهم الله عنه، لفتح الله لهم أبواب الخير من كل وجه ولكنهم كذبوا، فعاقبهم الله بالعذاب المهلك بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١/ ٤٧٧.

(٢) التفسير الميسر نخبة من العلماء، ص١٢١.

ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٩٦].

ويقول تعالى في سورة الأنفال متحدثاً عن آل فرعون والذين كفروا من قبلهم وسوء عاقبتهم بسبب معاصيهم: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٢].

الدأب العادة في تعذيبهم عند قبض الأرواح وفي القبور كعادة آل فرعون والمعنى جوزي هؤلاء بالقتل والسبي كما جوزي آل فرعون بالغرق، وهذا العقاب لأنهم كفروا واعتدوا وعصوا، والله قوي عزيز في أخذ الظالمين، شديد العقاب بالكفار والعصاة المذنبين[1].

ويقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٦].

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين، الذين ينعمون بكل سبل الراحة، فإذا قدر لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون، سلط الله هؤلاء المترفون ففسقوا فيها، فعم فيها الفسق، فحقت عليها سنة الله، وأصابها الدمار والهلاك، والآية تقرر محاربة الفساد والمفسدين حتى لا يكونوا سبباً لهلاك الجماعة كلها[2].

ويضع الله تعالى الميزان العادل للحساب يوم القيامة، ولا يظلم ربك أحداً، وإن كان هذا العمل قدر ذرة من خير أو شر اعتبرت في حساب صاحبها، وكفى بالله محصياً أعمال عباده ومجازياً لهم عليها، قال تعالى في تقرير تلك المعاني: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ

(١) انظر جامع الأحكام للقرطبي ٨/ ٣١.

(٢) باختصار من ظلال القرآن لسيد قطب، ٤/ ٢٢١٧ وما بعدها.

شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٤٧].

ويقول تعالى في سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٤/٢٤-٢٥].

تشهد تلك الجوارح على معاصيهم، ويوم القيامة يجزيهم جزاءهم العدل، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق، ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون، ويعلمون أن الله هو الحق المبين(١).

ولا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله فيهم حكماً أن يخالفوه، بأن يختاروا غير الذي قضى فيهم، ومن يعصي الله ورسوله فقد بعد عن طريق الصواب بعداً واضحاً يقوده للهلاك والعذاب جزاء معصيته لله ولرسوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٦].

إن كثيراً من الناس يكثر من الوقوع في صغار الذنوب عاصياً لله تعالى، معتقداً أن تلك الصغائر لن يحاسب عليها، ولكن القارئ المتأمل في آيات القرآن يعلم أن ميزان العدل الإلهي دقيق في إحصاء أعمال العباد، وإن كانت مثقال ذرة يحاسب عليها الإنسان.

يقول الشيخ القاسمي: «فمن يعمل وزن ذرة والذرة النملة الصغيرة، وهي مثل في الصغر، وقيل: الذر هو الهباء الذي يرى في ضوء الشمس إذا

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٥٠٥.

دخلت من نافذة، ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر يرى جزاءه ثمة»[١].

لذا فإنه يجب على المسلم تجنب المعاصي ما ظهر منها وما بطن، وما صغر منها وما كبر، لأنه محاسب على كل عمل يعمله، فآثار المعاصي عاجلة في الدنيا من عقوبة وهلاك ومحو بركة، وآجلة في الآخرة عذاب في جهنم أعاذنا الله منها.

(١) محاسن التأويل للقاسمي ١٧/ ٢٢٩.

المحاضرة الثالثة عشرة

مثال تطبيقي للوحدة الموضوعية لبعض سور القرآن الكريم

تفسير سورة تفسيراً موضوعياً

(تفسير سورة النور)

المبحث الأول

بين يدي السورة

سورة النور مدنية، نزلت بعد سورة الحشر، وعدد آياتها أربع وستون آية، وسميت بهذا الاسم لكثرة ذكر النور فيها كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٥].

وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٥].

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٢٤/ ٤٠].

وقد ذكر النور في هذه السورة بلفظه متصلاً بذات الله ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، كما ذكر فيها النور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح، فمثله هذه الأثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه

السورة، وهي آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجامعية، تنير القلب، وتنير الحياة، وهي مستمدة كلها من ذلك النور الكبير[١].

ويدور موضوع هذه السورة حول التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيعة التي تصل القلب بنور الله، وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وأثناء الحياة، وقد بدأت السورة بتقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف، وآداب وأخـــلاق ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ [النور: ٢٤/١].

فيدل هذا البدء على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية وفي نظرة الإسلام عن الحياة الإنسانية[٢].

المبحث الثاني

خصائص السورة

اختصت سورة النور ببيان الحدود الشرعية لبعض الجنايات التي تصيب النفس البشرية وأن هذه الحدود، هي الوسيلة الوحيدة لقمع شرور النفس الإنسانية التي لو تركت بغير هذه الحدود لملأت الأرض فساداً وفجوراً وفسوقاً.

فالخاصية الأولى: هي محاربة الفاحشة (الزنا) بكل أشكاله حتى يبتعد الناس من الاقتراب منها والوقوع في شرورها.

---

(١) دراسات في التفسير الموضوعي، د زاهر الألمعي؛ ص ١٥٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/٢٤٨٦.

والخاصية الثانية: هي محاربة القذف وعلة التشديد فيه حتى تصان أعراض الناس بصفة عامة والمسلمين بصفة خاصة،من ضعاف النفوس، الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بكل وسائل النهش في أعراض الناس، فكان حد القذف هو الحصن الحصين من شر ألسنة الفساق.

والخاصية الثالثة: هي تميز الخبيث من الطيب، فيجمع الخبيث مع مثله، والطيب مع ما يماثله من الطيبين وتحدد هذه العلاقة التي تربط بين هؤلاء وهؤلاء.

والخاصية الرابعة: الآداب الاجتماعية من محاربة الفوضى في العلاقة والتعامل بين الرجال البالغين والنساء البالغات، بين المحارم وغير المحارم، فلا بد من محاربة الاختلاط بين النساء والرجال، حتى تكتمل أسباب العفة، ويصبح المجتمع طاهراً نظيفاً بعيداً عن كل الشبهات، ومصائد الشيطان العدو اللدود للإنسان والإنسانية.

والخاصية الخامسة: تحدثت عن آداب الجماعة المسلمة مع المربي والقدوة الرسول الكريم محمد ﷺ.

والخاصية السادسة: أشارت إلى ملك الله الواسع، وعلمه بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية، فالناس جميعاً راجعون إليه ليحاسبهم على أعمالهم التي يحصيها بقدرته وعلمه بهم فيجازيهم عليها.

المبحث الثالث

أهداف السورة

تتلخص أهداف هذه السورة فيما يلي[١]:

---

(١) راجع أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د. عبد الله محمود شحاته، ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٦م، ص٢٥٥.

١- التربية الإسلامية الهادفة لطهارة الفرد وسلامة المجتمع.

٢- الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة والقيم الروحية السامية.

٣- الأحكام الحدية الزاجرة لشرور النفس الإنسانية، كحد الزنا، وحد القذف، والأحكام العامة في أثناء آياتها البيّنات.

٤- إحياء القيم الإيمانية الفاضلة التي تربط المؤمنين بنور الله.

٥- سورة النور دعوة هادفة إلى إضاءة القلب بتعاليم السماء، لتكون حصناً متيناً للفرد والمجتمع من الانحلال والتردي في الخطيئة فقد أمرت السورة بغض البصر، وحفظ الفروج، ونهت عن دخول البيوت بغير إذن من أهلها، وبينت عقوبة البهتان، وإلصاق التهم والافتراء على المستقيمين من عباد الله، كما ذمت إشاعة الفاحشة، وأظهرت عجائب صنع الله في الكون، وحثت على التوبة، وأبانت الطريق الصحيح للإنسان، ورفعت عنه عوامل الإحباط والانتكاس، وأبانت أن الله مطلع على كل شيء.

٦- ضرب المثل بنور الله الذي أشرقت به الظلمات في السماوات والأرض، النور الذي لا ندرك كنهه ولا مداه، إنما هي محاولة لوصل القلوب به، فحيثما توجه إليه القلب رآه، وحيثما تطلع إليه الحائر هداه، إنما المثل الذي ضربه الله لنوره وسيلة لتقريبه إلى المدارك، والله نور السماوات والأرض العليم بطاقة البشر، يهدي الله لنوره من يشاء[١].

---

(١) انظر الأمثال في القرآن، محمود بن الشريف، دار عكاظ جدة، ص٩٨.

المبحث الرابع

موضوعات السورة

تدور موضوعات سورة النور من خلال أهداف السورة الكريمة حول خمسة مواضيع في وحدة موضوعية متناسقة:

الموضوع الأول

يتضمن بداية السورة التي فرضها الله في بيان حد الزنا، وتفظيع هذه الفعلة، ثم بيان حد الفعلة، ثم بيان حد القذف، واستثناء الأزواج من هذا الحد مع التفريق بين الزوجين بالملاعنة، وتطرقت السورة إلى حادثة الإفك، وأقرت مشاكلة الخبيثين للخبيثات، ومشاكلة الطيبين للطيبات.

الموضوع الثاني

تناول وسائل الوقاية من الجريمة، وتجنب النفوس أسباب الإغراء والغواية، فتبدأ السورة بآداب البيوت والاستئذان على أهلها، والأمر بغض البصر، والنهي عن إبداء الزينة لغير المحارم، والحض على إنكاح الأيامى، والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء، إنها أسباب وقائية لضمان الطهر والتعفف في عالم الضمير والشعور، ودفع المؤثرات التي تهيج الميول الحيوانية من صور خليعة ترهق أعصاب الطاهرين وهم يقاومون عوامل الإغراء والإفساد[١].

الموضوع الثالث

هو مجموعة الآداب التي تضمنتها السورة وربطها بنور الله، وإعمار

(١) انظر دراسات في التفسير الموضوعي، د. الألمعي، ص١٥١.

بيوت الله بالذكر والطاعة،وفي الجانب الآخر تصف الذين كفروا وما يقومون به من أعمال، بالسراب في لمعانه وعدم حقيقته، لأنها ظلمات بعضها فوق بعض.

الموضوع الرابع

نور الله تعالى في الآفاق، في تسبيح الخلائق كلها بعظمته سبحانه، وفي إزجاء السحاب، وفي تقليب الليل والنهار، وفي خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، ومنهم من يمشي على بطنه، فتختلف في أشكالها ووظائفها وأنواعها وأجناسها، مما هو مشاهد في الكون للبصائر والأبصار.

الموضوع الخامس

تحدثت السورة عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع رسول الله ﷺ في الطاعة والتحاكم، ويصور أدب المؤمنين مع ربطه بالإخلاص والطاعة، ووعد الله لهم بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين لهم، ونصرهم على الكافرين.

الموضوع السادس

آداب الاستئذان والضيافة، داخل البيوت بين الأهل والأصحاب، وآداب الجماعة المسلمة واحترامها وتقديرها وطاعتها واتباعها للرسول القدوة محمد ﷺ.

الموضوع السابع

الله مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، رب السماوات والأرض وما بينهما، العالم بواقع الناس، وبكل

شيء، لتشير تلك العظمة الإلهية للحق تبارك وتعالى إلى حتمية العودة إلى الله، والرجوع إليه للحساب يوم القيامة.

وبعد فهذه هي سورة النور بموضوعاتها وأهدافها وخصائصها التي تناولتها، لتعطينا نموذجاً واضحاً من نماذج سور القرآن الكريم، الدالة على مدى ارتباط السور القرآنية بوحدة الموضوع، في تماسك وتناسق تام.

لقد أبانت هذه السورة الكريمة أن الإسلام منهاج حياة كامل، فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، وفي كل علاقتها وارتباطها، وفي كل حركاتها وسكناتها، ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة، وينسق بينها جميعاً، ويتجه بها إلى الله في النهاية، وهذه السورة (النور) نموذج من ذلك التنسيق الفرد[1].

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٣١.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، كانت هذه محاضرات في التفسير الموضوعي، حاولنا فيها الاطلاع على أصل هذا اللون من التفسير وإبراز خصائصه وسماته فيما يتصل بالموضوع الواحد في القرآن الكريم، وقد كانت حتمية الموضوع، وطبيعة المنهج تفرض علينا أن تكون هذه الدراسة في شكل محاضرات نلقيها على طلاب المعرفة بصفة عامة، وطلاب العلوم القرآنية والتفسير بصفة خاصة.

وقد فرضت علينا منهجية الدراسة ومفردات المقررات في التفسير الموضوعي أن نتناول الدراسة بمقدمة تعريفية عن تاريخ تفسير القرآن الكريم منذ عهد الرسول الكريم ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم أئمة التابعين الذين تخرجوا في مدارس صحابة رسول الله ﷺ في التفسير في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة والكوفة، وتحدثنا في المقدمة عن أساليب التفسير المعروفة، التفسير التحليلي، والمقارن، والجملي أو الإجمالي، والتفسير الموضوعي، وأشرنا في المقدمة إلى العناء الذي يجده دارس التفسير الموضوعي، وذلك لافتقار المكتبة الإسلامية لهذا اللون من التفسير، فالباحث لا يجد إلا اليسير المفرق هنا وهناك.

ومن هنا فقد اكتسب البحث أهمية في تناوله للتفسير الموضوعي بكل أنواعه، فقمنا في المحاضرة الأولى بتعريف التفسير الموضوعي لغة واصطلاحاً، فالتفسير الموضوعي عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي

تتحدث عن موضوع واحد مشتركة في الهدف، فهو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال آيات أو سورة أو أكثر.

وتكلمنا عن نشأة التفسير الموضوعي وتطوره، الذي بدأ مع نزول القرآن على النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، وإن لم يكن معروفاً بهذا المصطلح، وقد بدأ ظهور هذا المصطلح في القرن الرابع عشر الهجري، والمثال على ذلك تفسير آيات الأحكام، والدراسات اللغوية الموضوعية للقرآن الكريم كأمثال القرآن، والأشباه والنظائر، واستمر الأمر كذلك إلى عصرنا الحاضر حيث توجهت أنظار علماء القرآن والباحثين في شتى ضروب المعرفة إلى هدايات القرآن في الاقتصاد والاجتماع، والعلوم الكونية، بالإضافة إلى النماذج القديمة كما فعل ابن كثير، رحمه الله، فنجده يجمع كثيراً من الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد، كما فعل في الآيات التي ضرب فيها المثل.

ومن ثم تطور التفسير الموضوعي حتى أصبح علماً يبحث فيه الباحثون عن كل ما يتعلق بموضوعات القرآن الكريم، كما فعل الجاحظ في إعجاز القرآن، وابن قيم الجوزية في أقسام القرآن، والبقاعي في تناسب الآيات والسور، فأسهمت كل تلك المؤلفات بشكل فاعل في نشأة التفسير الموضوعي.

وتحدثنا عن أنواع التفسير الموضوعي الثلاثة: كلمات القرآن من جمع الآيات التي تحدثت عن كلمة معينة واستعمالات القرآن الكريم لها، وجمع الآيات القرآنية التي تتناول قضية واحدة بأساليب مختلفة عرضاً وتحليلاً، وتحديد الموضوع الذي تتناوله سورة قرآنية واحدة ثم دراسة هذا الموضوع من خلال تلك السورة.

وتكلمنا عن العلاقة بين التفسير الموضوعي وأنواع التفسير الأخرى من

تفسير تحليلي، وإجمالي ومقارن، وأثبتنا أنه لا غنى للباحث في التفسير الموضوعي عن أنواع التفسير الأخرى، لأن التفسير الموضوعي هو ثمرة أساليب التفسير مجتمعة.

وتناولنا أهمية التفسير الموضوعي الذي يستطيع الباحث من خلاله أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه، وتكمن أهمية التفسير الموضوعي أيضاً في تأهيل الدراسات القرآنية وتصحيح مسارها، لأن التفسير الموضوعي يعطي مداً جديداً لانتشار تعاليم هدى القرآن، كما يتيح الفرصة للدارسين في مختلف التخصصات من فهم القرآن الكريم.

وأبنا معنى الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، فالسورة الواحدة مهما تعددت قضاياها تكون قضية واحدة، فتهدف إلى غرض واحد، وبحث تسلسل الموضوع في السورة الواحدة يقود إلى الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم من خلال سوره وآياته، فالمراد بالوحدة الموضوعية اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثراً فيؤلف وحدة موضوعية كاملة، وبعبارة أخرى البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام، كموضوع الربا أو القتال أو الخمر وتحريمه في القرآن الكريم.

وتناولنا أمثلة لمنهج الوحدة الموضوعية وبحثها من خلال القرآن الكريم، وتمثل ذلك في الآيات المتفرقة مثل (صفات الأنبياء في القرآن الكريم) أو في سورة واحدة (الوحدة الموضوعية في سورة يوسف) أو الوحدة الموضوعية في السور القصيرة (كسورة الإخلاص التي تناولت موضوع الوحدانية).

أما المحاضرة الثالثة فكانت في موضوع الولاء والبراء في القرآن الكريم، فتناولنا معنى الولاء والبراء لغة واصطلاحاً بداية من الجاهلية بجميع

مظاهرها من شرك ووثنية، والمفاصلة بين الكفر والإيمان، فالولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها كما تحدثنا آيات القرآن العظيم، ولا بد من وجوب موالاة المؤمنين، وبالمقابل وجوب البراء من جميع أعداء الله وإظهار عداوتهم، ويشمل ذلك وجوب البراء من الكفار والمشركين، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن المنافقين، ووجوب البراء من المحادين لله ورسوله ولو كانوا ذوي القربى، وصور التولي المنهي عنه في القرآن الكريم من صور المحبة والمودة واتخاذهم أنصاراً وأعواناً، والإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، والركون إليهم، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، وطاعتهم فيما يأمرون ويشيرون والتشبه بهم، وأبنا الفرق بين الموالاة والمعاملة الحسنى.

وقد جاء منهج إبراهيم، عليه السلام، في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم موضوع المحاضرة الرابعة، والتي تحدثنا فيها عن نشأة إبراهيم، عليه السلام، وصفاته الكريمة، وأثرها في الدعوة، والأساليب النظرية من مناظرة ومحاجاة، ومعاريض، واستعطاف، واستعارة الخصم، وأساليبه العملية التي تمثلت في القدوة، والبداءة بالأهم، والبداءة بالأقربين، واللين والشدة، والتحدي، والمفاصلة، والدعاء والتضرع إلى الله، وتحطيم الأصنام، والهجرة من مكان إلى مكان في سبيل الدعوة إلى الله، وبناء البيت العتيق، وامتثال أمر الله بذبح ابنه إسماعيل، فقد كان إبراهيم عليه السلام، كما حدثتنا آيات القرآن إمام الموحدين وقدوة للمسلمين إلى يوم الدين.

أما منهج القرآن الكريم في إثبات عقيدة البعث، والمسالك التي سلكها القرآن من استدلال على البعث بالنشأة الأولى، وخلق السماوات والأرض وما فيهما، والاستدلال بخروج النبات من الأرض، وغيرها من الدلائل العظيمة كقصة صاحب القرية، الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، ولم يتغير طعامه طيلة تلك الفترة، وإحياء الطيور لإبراهيم، عليه السلام، بعد أن مزقها إرباً إرباً، وقصة الملأ من بني إسرائيل الذين أماتهم الله ثم أحياهم،

وقوم موسى السبعين الذين اختارهم الله، وقصة القتيل الذي ضرب بعضو من أعضاء البقرة فعادت إليه الحياة مرة أخرى، وإخراج النار من الشجر الأخضر، وحصول اليقظة بعد النوم، مع أن حكمة الله وعدله تقتضي البعث والجزاء، كان ذلك موضوع محاضرتنا الخامسة.

وتعرضنا لمكائد الشيطان وطرق الحذر منها كما عرضها القرآن الكريم في المحاضرة السادسة، وعلمنا كيف أن الشيطان أعاذنا الله منه يزين الباطل، ويسمي الأمور بغير اسمها، ويوعد ويمني الناس بوساوسه الخبيثة، ويظهر النصح للإنسان وهو لا يريد ذلك، بل يتخذه وسيلة لإغوائه، وينسي الشيطانُ الإنسانَ الخير والصلاح، ويحاول تخويف المؤمنين من أوليائه، ويلقي الشبهات، ويتخذ من الخمر والميسر والسحر سلاحاً فتاكاً في هدم الإنسان، لكن الحق تبارك وتعالى أخبرنا في كتابه العزيز كيف نرد كيده ونحذر شره، وذلك بالالتزام بالكتاب والسنة، واللجوء إلى الله والاحتماء به، والاستعاذة منه بكثرة ذكر الله، أعاذنا الله منه.

ولقد خصصنا المحاضرة السابعة في الحديث عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحكمه، وعواقب إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من العذاب واللعن والطرد من رحمة الله، والصفات التي يجب أن يتصف بها الداعية من علم، وعمل، وصبر ورفق ولين، وتيسير وتبشير، ولذلك كله كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم قواعد الإسلام، ومن أهم الواجبات الدينية والتكاليف الشرعية.

أما الجهاد في سبيل الله في القرآن الكريم فقد تناولناه في المحاضرة الثامنة فقمنا بتعريفه لغة واصطلاحاً، ووضحنا حكمه، وفضل الجهاد والمجاهدين في القرآن الكريم، والأهداف التي من أجلها شرع القتال في القرآن، من رد اعتداء المعتدين، وإزالة الفتنة عن الناس، وحماية الدولة الإسلامية، وقتل الكافرين وإبادتهم.

وفي المحاضرة التاسعة قمنا بعرض الصلاة في القرآن الكريم، وتكلمنا على فرضيتها ومنزلتها، والخشوع فيها، وأثر الصلاة في حياة الفرد والمجتمع، والثواب العظيم الذي أعده الله تعالى لمقيمي الصلاة، والمداومين عليها، إنهم الوارثون، ليس إرثاً فانياً إنما الإرث الدائم الذي لا ينقطع الخالد، إنه الفردوس الأعلى في جنات الله.

ودرسنا بر الوالدين في القرآن وكيف أن القرآن اعتنى بالوالدين وأبان حقوقهما، والإحسان إليهما بالكلمة الطيبة، والتواضع ولين الجانب والدعاء لهما، وحدود طاعتهما في غير معصية الله، درسنا كل ذلك في المحاضرة العاشرة من هذا السفر.

وجاءت المحاضرة الحادية عشرة في الصبر في القرآن الكريم، فالصبر هو زاد المؤمن، الموصل لجنات الله، فحدد القرآن مجالاته المتعددة من قيام بالواجبات الدينية، ومخالطة الناس، والجهاد في سبيل الله، والدراسة والبحث العلمي، والصبر على بلاء الدنيا، وشرحنا فضل الصبر وثوابه، وضرب لنا القرآن الكريم نماذج رائعة للصبر، وذلك من خلال صبر الأنبياء الذين اخترنا منهم (محمداً ﷺ وإبراهيم وأيوب عليهما السلام) إنها نماذج خالدة يقتدي بها الصابرون المؤمنون إلى يوم القيامة.

أما أثر المعاصي على الأمم وكيف أن الله تعالى حذر منها في القرآن الكريم فقد كان موضوع محاضرتنا الثانية عشرة فالمعاصي سبب في زوال النعم، ومحو البركة من الأرض، وزوال الأمن، والعقوبة والهلاك، فالمعاصي والإصرار عليها والمجاهرة بها سبب رئيسي في عقوبة السماء إلى الأرض، حفظنا الله منها.

وأقمنا مثالاً تطبيقياً للوحدة الموضوعية لبعض سور القرآن الكريم، وذلك من خلال تفسير سورة تفسيراً موضوعياً تناولنا ذلك في المحاضرة

الثالثة عشرة والأخيرة التي ذكرناها في مقدمة البحث لتأتي (سورة النور) خاتمة لمحاضراتنا التي استمرت عاماً كاملاً بحول الله وقوته، فوقفنا بين يدي السورة مستعرضين سبب تسميتها بهذا الاسم، لكثرة ذكر النور فيها، متناولين خواص السورة وأهدافها، وموضوعاتها السبع، التي تناولنا من خلالها منهجية هذه السورة المتكامل في تنظيم حياة الإنسان في تناسق آياتها عبر وحدة موضوعية شاملة.

وبعد فإننا نورد جملة من التوصيات من خلال هذه الخاتمة، وهي نتيجة حتمية لدراستنا والتي كانت عبارة عن محاضرات في التفسير الموضوعي، فبعد الدراسة والبحث نوصي بالآتي:

أولاً: نوصي القائمين على أمر الجامعات والكليات الجامعية سواء أكانت حكومية أو أهلية بضرورة تدريس مادة (التفسير الموضوعي) بكافة الكليات الجامعية، وعلى اختلاف تخصصاتها، لحاجة كل مسلم لفهم كتاب الله حتى يبلغه للناس كافة، فواجب الدعوة إلى دين الله وإن أوكل القيام به للمختصين في العلوم الشرعية إلا أنه لا يعفي من المسؤولية الأطباء والفيزيائيين، والمهندسين والزراعين، والطيارين، وغيرهم من مختلف ضروب العلم والمعرفة.

ثانياً: كما نوصي كليات الدراسات العليا خاصة أقسام الكتاب والسنة، والتفسير وعلوم القرآن الكريم، على اختلاف المسميات من جامعة إلى أخرى بتشجيع البحث العلمي في مجال التفسير الموضوعي حتى يهتم الباحثون وتظهر إبداعاتهم في هذا الجانب الهام من أساليب تفسير القرآن الكريم.

ثالثاً: ندعو ونكرر الدعوة إلى الزملاء المختصين من أصحاب الفضيلة علماء التفسير خاصة أساتذة الجامعات إلى المزيد من البحث في مجال

التفسير الموضوعي حتى نثري المكتبة الإسلامية بهذا اللون من التفسير الذي نفتقر إليه كثيراً.

رابعاً: نوصي دور النشر وأصحاب المطابع في بلاد الإسلام بتنشيط طباعة الكتاب الإسلامي، بصفة خاصة ما يكتب في مجال التفسير حتى يؤدي ذلك إلى تنشيط الباحثين في مجال العلوم الإسلامية.

وأخيراً: أسأل الله رب العالمين أن يجعل هذا الجهد المتواضع خدمة لكتابه العزيز في ميزان حسناتنا، وأن ينفع به إخواننا من طلاب العلم في كل مكان، هذا والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وقد كان الفراغ من كتابة هذا البحث في الساعات الأولى من صبيحة يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان المبارك من عام ألف وأربع مئة وواحد وعشرين الموافق له التاسع والعشرون من شهر نوفمبر من العام ألفين في مدينة بيشة بالمملكة العربية السعودية.

كتبه الفقير إلى الله الراجي عفو ربه

د. عباس عوض الله عباس بخيت الهمشري

أستاذ التفسير المشارك وعلوم القرآن الكريم بجامعة أم درمان

الإسلامية وكلية المعلمين في بيشة

المصادر والمراجع[1]

القرآن الكريم

١- دراسات في علوم القرآن الكريم، د. فهد الرومي، طباعة مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل، طباعة المكتب الإسلامي ١٣٩٨هـ.

٣- صحيح مسلم بشرح النووي، طباعة مكتبة الجندي - مصر.

٤- بحوث في أصول التفسير ومناهجه للدكتور فهد الرومي، طباعة مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ.

٥- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني.

٦- دراسات في التفسير الموضوعي، د. زاهر الألمعي.

٧- المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبد الستار سعيد.

٨- مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم.

٩- التفسير الموضوعي، د. محمود قاسم.

١٠- صحيح البخاري، طباعة دار المعرفة - بيروت لبنان.

١١- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية تحقيق عدنان زرزور.

١٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، طباعة دار ابن كثير، دمشق.

١٣- دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، د. أحمد جمال العمري.

١٤- مجلة الأزهر الشريف عدد رمضان ١٣٧٧هـ.

١٥- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام، د. حسن محمد باجودة، طباعة دار الكتب الحديثة القاهرة.

١٦- الموافقات للإمام الشاطبي، طباعة البابي حلبي وشركاه مصر.

١٧- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، د. محمود محمد حجازي، طباعة دار الكتب الحديثة مصر.

١٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

١٩- الوحدة الموضوعية في سورة الأنعام، رسالة دكتوراه د. عباس عوض الله عباس.

٢٠- التفسير الموضوعي، د. أحمد السيد الكومي، طباعة دار الهدى مصر ١٩٨٠م.

٢١- لسان العرب لابن منظور.

٢٢- القاموس المحيط للفيروزآبادي.

٢٣- المصباح المنير للفيومي.

٢٤- كتاب الإيمان لنعيم يس.

٢٥- الولاء والبراء في الإسلام للشيخ محمد سعيد القحطاني، طباعة دار طيبة السعودية، ١٤١٧هـ.

٢٦- جامع البيان لمحمد بن جرير الطبري.

---

(١) المصادر والمراجع مرتبة حسب أسبقيتها في صفحات الكتاب.

٢٧- في ظلال القرآن، سيد قطب، طباعة دار الشروق، بيروت، مصر.
٢٨- الاحتجاج بالقدر لشيخ الإسلام ابن تيمية، طباعة المكتب الإسلامي ١٣٩٣هـ.
٢٩- الجامع الصغير للسيوطي.
٣٠- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) للشيخ محمد رشيد رضا، طباعة دار المعرفة - بيروت، لبنان.
٣١- محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي، طباعة دار الفكر - بيروت، ١٣٩٨هـ.
٣٢- التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي، طباعة دار الفكر، بيروت - دمشق، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
٣٣- التفسير الميسر إعداد نخبة من العلماء، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة ١٤١٨هـ.
٣٤- مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان جمعة ضميرية، طباعة مكتبة السوادي جدة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
٣٥- قصص الأنبياء، الشيخ عبد الوهاب النجار.
٣٦- التنبيه والإشراف للمسعودي، طباعة مصر ١٩٣٨م.
٣٧ - تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، طباعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان.
٣٨- حياة إبراهيم، محمود شلبي، طباعة دار الجيل - بيروت ١٩٨٤م.
٣٩- فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني، طباعة دار الحديث مصر ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
٤١- كتاب التوحيد، د. صالح فوزان الفوزان، طباعة مكتبة الأثير الرياض.
٤١- أضواء البيان في تفسير القرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، طباعة عالم الكتب - بيروت.
٤٢- مسائل من فقه الكتاب والسنة، د. عمر سليمان الأشقر، طباعة دار النفائس الأردن.
٤٣- مناظرات مع الشيطان (مناظرات أئمة السلف مع حزب إبليس) لأبي أسامة سليم بن عبيد الهلالي، طباعة ابن الجوزي ١٤١٤هـ.
٤٤- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.
٤٥- مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية، مكتبة محمد علي صبيح، مصر.
٤٦- تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت، طباعة دار الشروق، بيروت ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
٤٧- الحسبة في الإسلام لشيخ الإسلام ابن تيمية، طباعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
٤٨- إحياء علوم الدين للغزالي.
٤٩- المحلى لابن حزم الظاهري.
٥٠- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبو بكر الخلال.
٥١- الجهاد للدكتور محمد نعيم ياسين، طباعة مكتبة الأقصى الأردن ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٥٢- قطر الندى وبل الصدى لأبي عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
٥٣- إرشاد الساري للقسطلاني.
٥٤- الجهاد في الإسلام للشيخ صالح اللحيدان، طباعة دار اللواء، الرياض ١٣٩٧هـ.
٥٥- أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، د. علي بن نفيع العلياني، طباعة دار طيبة، الرياض ١٤١٦هـ.
٥٦- السير الكبير للشيباني، طباعة دار الحديث - مصر.
٥٧- أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية، طباعة دار ابن القيم - دمشق.
٥٨- كتاب الأم للإمام الشافعي، طباعة دار المعرفة، بيروت.
٥٩- هذا الدين، سيد قطب، طباعة دار الشروق - بيروت.
٦٠- أحكام الصلاة والطهارة للشيخ محمد علي الصابوني، طباعة دار القرآن الكريم، بيروت ١٤١٨هـ.
٦١- الفقه على المذاهب الأربعة، عبد الرحمن الجزيري، طباعة دار الفكر - بيروت.
٦٢- تعليم الطهارة والصلاة للشيخ حسن أيوب، طباعة دار القلم الكويت.
٦٣- روح الصلاة في الإسلام، عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت.
٦٤- فقه السنة العبادات، سيد سابق، طباعة دار البيان - مصر.
٦٥- جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ لابن الأثير، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، مصر ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
٦٦- صحيح الترمذي.
٦٧- سنن أبي داوود.
٦٨- الصبر في القرآن الكريم، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة مصر ١٤١٠هـ/ ١٩٨٠م.
٦٩- تفسير القرآن للشيخ عبد العزيز بن عبد السلام السليمي الدمشقي الشافعي، تحقيق د. عبد الله إبراهيم، طباعة المؤلف بدون الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
٧٠- الفوائد للإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية، طباعة دار اليقين المنصورة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
٧١- تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي طباعة دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٧٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية للإمام محمد بن علي الشوكاني، طباعة دار الفكر - بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٧٣- أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د. عبد الله شحاته، طباعة الهيئة العامة للكتاب، مصر.
٧٤- الأمثال في القرآن، محمد بن الشريف، طباعة دار عكاظ جدة.

مستخلص

كتاب في التفسير الموضوعي، يجمع الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد فيفسرها معاً، ليعضد بعضها بعضاً.

جاء الكتاب على شكل محاضرات ألقيت على طلاب الجامعة، بلغت ثلاث عشرة محاضرة غطت جوانب رئيسة في القرآن الكريم.

شملت المحاضرة الأولى تعريف التفسير الموضوعي ونشأته وتطوره وأنواعه وأهميته. **وجاءت** المحاضرة الثانية في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم؛ تعريفها، ومعناها وأمثلة لها. **ودخلت** المحاضرة الثالثة إلى الموضوعات التي تتعلق بسور القرآن الكريم وآياته ذات الوحدة الموضوعية. وتضمنت عدة مباحث عن الولاء للمؤمنين والبراء من الكفرة. **وتناولت** المحاضرة الرابعة منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة، وفيها بعض صفاته وشمائله وأعماله. **وشملت** المحاضرة الخامسة عنوان منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت. **وأشارت** المحاضرة السادسة إلى موضوع مكائد الشيطان للإنسان وطرق الحيطة والحذر كما عرفها القرآن الكريم. **وتوقفت** المحاضرة السابعة عند موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومكانته وعواقب إهماله. **وعالجت** المحاضرة الثامنة موضوع الجهاد في الإسلام من خلال سور القرآن الكريم وما يتعلق به من فضل المجاهدين وأهداف القتال ومكانة الشهداء. **وتعلق** موضوع المحاضرة التاسعة بالصلاة وأدلة فرضيتها ومنزلتها وأثرها والخشوع فيها. **وجعلت** المحاضرة العاشرة برّ الوالدين موضوعها، فبينت حقوقهما وأهمية حسن معاملتهما وطاعتهما. **واختصت** المحاضرة الحادية عشرة بموضوع الصبر ومجالاته وأهمية التحلي به وثوابه. **وتوفرت** المحاضرة الثانية عشرة على موضوع أثر المعاصي في الأمم، وكيف أدى ذلك إلى عقوبتها. **وكانت** المحاضرة الأخيرة في التطبيق العملي للوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم.

Abstract

This book deals with the thematic interpretation of the Holy Qur'an. It compiles the Qur'anic Verses handling the same topic and interprets them as an integrated unit so as to solidify one another.

The book appears in the form of lectures given to the university students, which count thirteen in total covering the main aspects of the Holy Qur'an.

Lecture One includes the definition, origin, development, kinds and the importance of the thematic interpretation. *Lecture Two* turns up to discuss the thematic unity of the Holy Qur'an, its definition, meaning and examples thereon. *Lecture Three* plunges into the themes of the Surahs of the Holy Qur'an and the Verses with thematic unity in it. It also involves several researches handling loyalty to believers and disowning unbelievers. *Lecture Four* deals with Prophet Abraham's approach in his call iand ncludes some of his qualities, attributes and works. *Lecture Five* contains a heading for the Qur'anic methodology of establishing the belief of resurrection after death. *Lecture Six* indicates Satan's plotting against the human and the ways of precaution and care of that evil creature in accordance with the way the Holy Qur'an discusses. *Lecture Seven* pauses at the topic of enjoining good and forbidding evil, its rank and the consequences of neglecting it. *Lecture Eight* tackles Jihad in Islam and the relevant topics of the virtue of the Mujahideen, the objectives of fighting and the rank of martyrs on the basis of the Surahs of the Holy Qur'an. The topic of *Lecture Nine* is related to prayer, the proofs of its being mandatory, its rank, its effect and humbleness in it. *Lecture Ten* makes a Muslim's being dutiful to his/her parents its topic of research stating parents' rights and the importance of doing good to them and obeying them. *Lecture eleven* is singled to discuss "patience", its fields, the importance of assimilating it and the reward thereof. *Lecture twelve* is made to discuss the effect of sins on communities, which resulted in getting them inflicted with punishment. The last, *Lecture Thirteen*, explains the practical application of the thematic unity in the Surahs of the Holy Qur'an.